المفكر الاشتراكي

في أدب نجيب محفوظ

دكتور/ حسن يوسف

أستاذ الفلسفة المساعد

بأكاديمية الفنون بالقاهرة

« مهما كان الأمر، فإن ما يجب أن نضعه نصب أعيننا، هو أن نظل جميعا من أهل اليسار»

جان بول سارتر

(مواقف ـ الجزء السابع)

«حتى وإن كانت مهمة بناء المستقبل لا تقع على كاهلنا نحن إلا أن ما يتعين أن ننجـزه الآن ودورنا الواضح فيها هو أن نشهر نقدا لا هوادة فيه ضد الأوضاع القائمة»

(كارل ماركس في 1843)

« وعجبت لحال وطني .. إنه رغم انحرافه يتضخم ويتعاظم ويتعملق .. ولكن ما بال الإنسان فيه قد تضاءل حتى صار في تفاهة بعوضة، ما باله يمضي بلا حقوق ولا كرامة ولا حمايـة، ما باله ينهكه الجبن والنفاق والخواء...»

(نجيب محفوظ ـ الكرنك)

« أمريكا هي العدو الحقيقي ..

وبقي الشباب وحدهم لا يسلمون أنفسهم للماضي ولا يأملون خيرا في أمريكا **..**

(نجيب محفوظ ـ الكرنك)

إذا علمتك المأساة أن تحزن وتثور فتعلم منها أيضا أن تفهم **...**

(نجيب محفوظ ـ الشيطان يعظ)

الإهداء

إلى روح الرجل الغائب الحاضر، الذي جعلني أتعلق بنجيب محفوظ منذ السنة الأولى لي بالجامعة ...

إلى روح الأستاذ القدير .. الدكتور

رجاء عيد

قيمة فكرية باقية رغم رحيل الجسد..

[مقدمة]

الرواية العربية

والاتجاه اليساري

* الأدب تعبير عن الحياة وحامل اتجاه :

يرى هيدسون أن الأدب هو الذي يظهر لنا ذاتنا بشكل واضح، إنه التصـوير الحقيقـي للذات الإنسانية ويعرض لنا ذلك بقوله.. والحق إن عنايتنا بالأدب ترجع أولا وقبل كل شـيء إلى أهمية الإنسانية العميقة الباقية. فالكتاب العظيم يستمد مباشرة من الحياة. ونحن حين نقرأه نستكشف بين أنفسنا والحياة علاقات كثيرة وطيدة وجديدة. وفي هذه الحقيقـة نجـد التفسـير النهائي لما له من قوة. فالأدب سجل حي لما رآه الناس في الحياة، وما خبـروه منهـا، ومـا فكروا فيه وأحسوا به إزاء مظاهرها التي لها عندنا جميعا أهمية مباشرة وباقيـة تفـوق كـل أهمية وهو بذلك يعد –بصورة أساسية- تعبيرا عن الحياة وسيلته اللغة، ولكن مـن المهـم أن نفهم منذ البداية أن الأدب يعيش بفضل الحياة التي تتمثل فيه[1] ..

ويلاحظ أن الأدب بطبيعته لا يستطيع أن يدافع عن قضايا خاسرة تاريخيـا واجتماعيـا وإنسانيا، لأن ذلك كفيل بجر الأدب إلى قاع الفشل الفني. ولا يذكر تـاريخ الأدب روايـة أو قصة خالدة تدافع عن جلاد أو طاغية ! ذلك إن وظيفة الأدب الأساسية التي لا يقوم من دونها هي تجاوز الواقع، وطرح الأسئلة بالشكل الذي يبرز ضرورة التقـدم، فالقصـص لا تكتـب تصويرا لواقع كما هو دون موقف منه، لكنها تكتب كمحاولة لإعادة تنظيم ذلك الواقع في نسق آخر، يتجاوز الوضع القائم. وبهذا المعني يتبنى الأدب في ثناياه معارضة ما هو سائد، مشبعا بطموح لتغيير الواقع الاجتماعي، أو النفسي، أو منظمة القيم، أو غير ذلك. ولا يسع الأدب أن يدافع عن القسوة، أو الاستبداد أو التخلف أو الفظاظة أو التمييز العرقي أو الديني أو الظلم أو التعصب أو الاستغلال[2] ..

*** الإبداع الفني وتيمة (التمرد و(التجاوز) :**

في الفن الإنسان يبحث عن الامتلاء والاكتمال، ويتمرد على كل ما يختزله فردا مطويا على نفسه مقصورا عليها. ويرفض أن يستهلك فاعلياته، أو تُستنفد طاقاته فيمـا هـو عـابر ومحض صدفة، وكل ما من شأنه أن يحد من شخصيته. لذلك يغرق نفسه فـي آثـار الفـن، فيتمثل حيوات غير حياته، ويتوحد معها ويستجيب لها. وهذا التجاوب مع آثار الفن تمثـل (لا واقعا) unreality أو واقعا مكثفا إنما هو امتداد لفردية الإنسان إلـى الوجـود الاجتمـاعي المشترك، وتوسع في ممكناتها يشير إلى شغفه بان يمتص العالم داخل نفسه ليجعل منه عالمه الخاص، فيتجاوز ما هو سطحي عارض إلى ما هو جوهري عميق، وهو ما نجد له نظيرا في العلم والتكنولوجيا حيث يحاول الإنسان أن يستطيل بذاته فيستوعب العالم كله من أعماق الذرة حتى أقصي مجرات السماء. فإذا كان ما هو قائم بالفعل هو وجود الإنسان فردا واحدا، فـان (ما ينبغي أن يكون) هو أن يكون الفرد كلا، وأن يكون كل ما هو جدير أو قدير على وجوده، وهنا تتخذ القيم مكانها من الفن من حيث هو تذوق[3].

وعلينا أن نتيقن أن الخلق الأدبي ليس انقطاعا عن الواقع، وإنما هو امتـداد واكتشـاف لإمكاناته الكامنة، وهو صياغة نوعية لقوانين حركته وصراعه. وهو بهذا تعبير عنه وإضافة إليه. إن الأدب معلول للحياة نفسها بما حققه من إبداع. انه إبداع بما يفجر في نفـس المتلقـي والمتذوق فردا أو جماعة من وعي فكري ووجداني جديد.. وبما يضيئه من رؤية اجتماعيـة وإنسانية فيها نضارة وجدة وحيوية.

وهكذا نجد في الأدب قانونين أو مبدأين لا يتناقضان مع طابعه الإبداعي الخلاق. مبـدأ العلية الذي يعبر عن المصدر الاجتماعي للأدب، ومبدأ الغائية الذي يعبر عن الفاعلية المؤثرة للأدب في الحياة[4].

*** الأدب والينبغية:**

لا ينبغ أن نخلط بين الغاية التي يتوخاها الكاتب وهو يشرع في الكتابة، والغائية التـي تنبع من الأدب نفسه عندما تتم كتابته، إن الغائية الأصلية في الأدب عي تلك التي تنبـع مـن

بنائه وتنعكس عنه في عقل المتلقي ووجدانه بطريقة ديناميكية حية. شأنها في ذلك شأن العلية الأصلية في الأدب التي تعكس الحياة في الأدب بطريقة ديناميكية حية كذلك، ولهذا فان صورة الحياة أو الأفكار المجردة أو الشعارات التي تفرض على الأدب فرضا من خارجه، إنما تعبر عن اتجاه مثالي زائف في الأدب، يضعف من قيمة الأدب، ويخفت من مضمونه، من دلالتـه المؤثرة، من تأثيره الفعال. وهو اتجاه يناقض الفلسفة المادية على عكس ما يزعم الزاعمـون. إن الحياة تنعكس في الأدب بنوعية الأدب لا بنوعية الحياة، والمضمون الأدبي يصـدر عـن الأدب بنوعية الأدب نفسه كذلك لا بنوعية الفكر العلمي والتصورات العقلية أو الحوار البشري العادي وهذا هو المعني الحقيقي والعميق للالتزام في الأدب. إن كل أدب هو – بالمعني العام- أدب ملتزم أي أدب معبر عن دلالة مؤثرة .. على أن الالتزام – بمعناه الخاص الشائع- هـو التزام بقضايا التقدم البشري، بالرؤية الصحيحة لحركة النضال البشري، وهو التزام ينبع فـي الأدب من الرؤية الاجتماعية والتاريخية للأديب وينبع من الأدب، ويبرز في بنائه العام، فـي مضمونه، في دلالته المؤثرة، في قيمته المضافة، بشكل تلقائي، غير مفروض لا على الأديب ولا من الأديب على الأدب نفسه[5].

*** الفن .. من « الواقع » إلى تجاوز الواقع :**

في الفن لا يجبْ الحديث القديم ولا ينفيه أو يقوم مقامه. وأيضا أن (التاريخية) في الفن ليس معناها التطابق الآلي مع ظروف طبقية واجتماعية بعينها. إن الفن انعكاس لواقع محـدد. لكن هذا الانعكاس يتضمن (النسبي) المتعلق بالدلالـة الاجتماعيـة المحليـة المعاصـرة أو (التاريخية) كما يتضمن (الثابت) المتعلق بالدلالة الإنسانية العامة أو (الباقية). والفـن الفقيـر وحده هو الذي يتضمن الدلالة التاريخية النسبية، وهو فن (المناسبة العابرة) ويموت بانقضـاء الظروف التي وقف عندها. والخوالد في الفن تتضمن الدلالتين، لكن نجاحها في صياغة الثابت إنما تحدده قدرتها على صياغة النسبي التاريخي: قدرتها على اسـتخلاص العـام الخـاص، والكلي من الجزئي، والثابت من النسبي، والنموذجي من العارض[6] ..

إن الفن انعكاس، ولكنه ليس انعكاسا سلبيا، بل هو إسهام في التعرف على الواقع، وأداة للم شعثه، وسلاح لتغييره. فإذا غامت رؤية الفنان للحقيقة الموضوعية فقد عمله موضـوعيته.

وإذا غابت الذات فقد عمله فنيته. إن الواقع يبدو في الفن أكثر غني من حقيقتـه الواقعـة لأن الفن لا يقف عند الواقع في معطياته الخارجية المباشرة، إنما يتخطي هذه المعطيات إلى إدراك جديد لها، فيبدو الواقع في صورة جديدة له: صورته الفنية. وهذه الصورة الفنية أكثر كمـالا من أصلها. لأنها تلم ما بدا مبعثرا من عناصره. وتوضح ما بدا غامضا من مغزاه. إن الفـن وإن كان مصدره الواقع، إلا أنه يتجاوز الماثل في هذا الواقع إلى إكمال ما يشوبه من نقـص، وإلي ما يرهص به من جديد. بهذا يتحرر مفهوم الواقع مع (المثول) ومن المباشرة الواقفة عند حد المرئي والملموس، فينتظم الشوق إلى الاكتمال، والحلم بما لم يقع، واستشـراف مسـتقبل آت[7].

إن الثورية في الأدب هي تنمية الرؤية الموضوعية للواقع الإنسـاني وشـحذ الـوعي الطبقي، وتوكيد قيم الحرية والمساواة وإعلاء إنسانية الإنسان وتنمية طاقاته المبدعة للمشاركة في تغيير الحياة وتجديدها.

إن الواقعية الاشتراكية ليست محدودة بمواصفات نهائية في أسلوبها أو شكلها. بل هـي إمكانية تعبيرية عن الواقع الإنساني بمختلف خصائصه وملامحه وقسماته القوميـة والنوعيـة نكتشف فيه قوانينه الاجتماعية الأساسية ونماذجه الإنسانية الجوهرية المعبرة عن حركة الحياة وعملياتها النشطة، وتفاعلاتها الجدلية وهي بهذا ارتفاع بالأدب "إلي مستوي إنساني وتـاريخي شامل، دون أن يغض هذا من دلالته المحلية والقومية والاجتماعية المحددة وهي لهذا وبـذلك تنمية لوعينا وشحذ لنضالنا وتعميق لإنسانيتنا[8].

*** الإبداع الفني وثورة التغيير :**

الإبداع الفني الأصيل هو الذي يحمل بذور الثورة داخله، انه قوة كامنة في داخل العمل نفسه. انه الثورة على كل ما هو سلبي وكل ما يغرب الإنسان ويحط من قيمته وإنسانيته ..

العمل الفني هو ثورة من أجل المزيد من إنسانية الإنسان .. انه ثورة ضد الظلم والقهر والدكتاتورية لأنه في نهاية المطاف يريد أن يقيم علاقة حميمـة بـين الإنسـان والإنسـان،

والإنسان والوجود المحيط به .. إنه الأمل داخل العمل الفني وداخل كل فكر إنسـاني أصـيل وحقيقي..

وفي الرأي الماركسي إن النص الأدبي، ليس عرضيا، انـه يـرتبط بـبعض الحقـائق التاريخية الخاصة ويجسدها، ويرتبط بالمثل ببعض العلاقات السياسية والاجتماعية ويجسـدها .. وتتمسك الماركسية بالإيمان بأن للأدب قدرة على تحويل المجتمع. وهذا لا يتضمن، مهمـا يكن، عملية بسيطة يثبت بواسطتها القارئ مباشرة من قراءة رواية أو قصـيدة للـدفاع عـن الاستحكامات ضد الاغتصاب الرأسمالي لحقوق العمال. إن الرأي الماركسـي يواصـل هـذا الاهتمام، بالأحرى، لأن الأدب جزء من البنية الفوقية، يعيد بالتالي، إنتاج أيديولوجيا القاعـدة الاجتماعية. ويتمتع بالقدرة على تغيير تلك الأيديولوجيا، وبالتالي تغيير القاعـدة الاجتماعيـة ذاتها. ولأن الأدب يتمتع بالقدرة على النأي بنفسه عن الأيديولوجيا الاجتماعية، ويفتح الثغرات التي تسمح بالتساؤل حول الأيديولوجيا – وقد تدعو إلى هذا- فانه يكون قادرا على التـدمير، وبالتالي على التغيير الفعال[9].

إن فكرة التغير المستمرة فكرة قديمة في الفلسفة، وقضية (كل شيء يتغير) تمثل جـزء من الحقيقة وعلي أية حال فإن فلسفة التغير كما يمثلها (هيراقليطس) الفيلسوف اليوناني تخطو إلى الأمام وستظل تتقدم إذا كنا مقتنعين بها ونعمل على استمرارها من خلال الفعل والإبـداع الإنساني .. وبقناعتنا بفكرة التغير التي يقول بها هيراقليطس تكون قناعتنا بدور العمل الفنـي والإبداعي كما يعرضها لنا صلاح قنصوة .. فهو يري ...

إن العمل الفني يعمل على خلخلة الجمود والثبات في الأشياء، ويحطم الألفة والاستقرار، وينزع الكثافة والغلظة عن الوجود الخارجي ليغدو ذرات متماوجة تتخلق منه أشكال شتي ... الفن بمثابة نوافذ على عوالم جديدة، أو هو نظرة جديدة تحكم الألفة وتخترقها، وتحول ما هـو ملقي في الطريق إلى طازج وطريف يجدر بالمراجعة والتأمل من جديـد، واتخـاذ موقـف مختلف، ويشعل الحياة في رماد الاستقرار والتكرار، ويستعيد التوهج الذي أطفـأه الاعتيـاد، ويسلط الضياء على ما تواري عن الاهتمام، وينير الداخل المعتم للأشياء والتجارب ويتفق الفن مع سائر المجالات أو الفاعليات الإنسانية في تحرير قوي الإنسان وتوكيـد سـيطرته علـى العالم[10] ..

ويواصل صلاح قنصوة على تأكيد أن الفن ضد الثبات وضد الجمود وضد كل ما يؤدي بالإنسان إلى الركود والسكون بقوله .. يرفض الإبداع الامتثال للقوالب السابقة، والصيغ التي استقرت عليها الأمور في الزمان والمكان، لأنه لا يعد الإنسان مجرد منتج للنوع فقـط عـن طريق التناسل، بل يحفزه إلى أن يعيد إنتاج الحياة والعالم من حوله. فيسعى دائما إلى إزالـة كل ما يعوق الإنسان عن امتداد سلطانه وتوسعة ممكناته ... الإبداع .. هو إعـادة اكتشـاف للواقع تمهيدا لإحكام السيطرة عليه. ويزاوج بين القطيعة والاستمرار، فهو قطيعة عن الوعي المبرمج في زمن سابق، كما هو، في الوقت نفسه انفتاح على كل خبرات السابقين وأفكـارهم التي تجعل منها مادة ما يؤلف منها اجتهاده الخاص(11) ..

إن فكرة التغير فكرة هامة في التاريخ الإنساني، ولكن المهم أيضاً أن يكـون التغييـر مدفوع بالقوة التاريخية أو مدفوع بقوة المستقبل .. إن الرؤى الراديكالية في حد ذاتها لا تمثل شيئا، هي بمثابة أفكار جاهزة تحتاج للتفعيل، وبدقة أكثر أن التفكير الراديكالي بشـكل عـام يحتاج لقوة تؤازره وتدفعه .. تلك القوة هي الحاجة التاريخية له .. الرؤية الراديكالية تصـبح فعالة في اللحظة التي تستشعر التاريخ والمستقبل. والأدب الراديكالي عامة يمكـن أن يكـون مؤثرا عندما يكون التاريخ الاجتماعي أو اللحظة التاريخية القائمة في حالة من التوتر والقلـق ومن ثم فهي تستشرف المستقبل وتستشعره، هنا يلعب الأدب الراديكـالي دوره فـي عمليـة التغيير، لأن هناك قوة تدفعه وتجعله قادرا على أن يحقق أهدافه وأحلامه وآماله.. إنني مؤمن أشد الإيمان بقوة وقيمة الفن والأدب وكافة أنشطة الإبداع الإنساني، مؤمن بقدرتها على كشف الحقيقة والدفاع عن الحرية وكشف مواطن الخلل في النظام الإنساني، الفـن والأدب بمثابـة مصابيح تضئ للبشر الطريق الذي ينبغي أن يسروا فيه. ومن السـخف أن نظـن أن الفـن والإبداع الفني والأدبي هي مجرد نشاطات ذاتية ينتجها أشخاص منعزلين في أبراجهم العاجية. قيمة الإبداع في قوة التأثير على المستوي الذاتي والحياتي والموضوعي .. وقد أشار إلى تلك المقولة (راسل جاكوبي) بقوله ... أن أساتذة الأدب الجدد وقد تخلوا عن الحقيقة من أجل الفن، ثم تخلوا عن الفن من أجل فهم الفن. وهم في تمردهم علـى العمليـة أبـدلوا القـيم وتقبلـوا المصطلح. ما هو موضوعي رديء وما هو ذاتي جيد. باسم الهدم أرسلوا الفـن إلـى ذلـك المستودع المسمي بالذاتية، وأبقوه حبيسا هناك لزمن طويل. لكن الفن لـيس هـو، ببسـاطة،

الذاتية وتعدد المنظورات والأوصاف الكثيفة، بل إنه أيضاً يشارك في الحقيقة، ويلمـح إلـى الحرية والسعادة. ولهذا السبب قاوم شعراء مثل وورد زورث ذلك الحديث العرضي عن الفن باعتباره ذوقا، كما لو أن الشعر لا يشارك في الحقيقة والاستبصـار ..... لا يتحـدث وورد زورث باسم كل الشعراء أو الفنانين أو باسم الفن ذاته، لكنه يكشف عن خصيصة في الفـن لا يكاد يشير غليها أنصار المناهج الأدبية: حقيقته، فهدف الفن – على حد كلماته- هو الحقيقـة، لا الحقيقة الفردية والمحلية، ولكن العامة والفعالة، والتي هي ليست في حاجـة إلـى شـهادة خارجية، لكنها حية في القلب تحملها العاطفة، الحقيقة التي هي شهادتها، والتي تهـب القـوة والقداسة للمحكمة التي تتقدم إليها[12] ..

*** الرواية المصرية والرؤية اليسارية :**

الأدب نشاط يساري، بحكم وظيفته الرئيسية العضوية، ألا وهي تجاوز الواقـع. إلا أن اليسار هو تيار فكري وفلسفي وإيديولوجي أبعد تأثيرا من موضـوع الأدب، واليسـار بهـذا المعني رؤية تمتد بضوئها إلى النقد والسياسة وعلم الاجتماع والأدب والثورة وغيـر ذلـك. والصلة القائمة بين اليسار والأدب مقتصرة على تأثير الرؤية اليسارية فـي العمـل الأدبـي، وخلق ذلك العمل، واسترشاده بقيم إنسانية واجتماعية معينة.

اليسار (رؤية) اجتماعية وفلسفية واقتصادية، وعلمية وسياسية، أما الروايـة والقصـة فإنهما تندرجان في باب السرد الروائي. والعلاقة بينهما علاقة تأثير وتأثر.. وحين نتحدث عن اليسار في القصة والرواية فإننا نعني تأثير الرؤية اليسارية الأقرب للفكر الماركسـي والتـي تتبنت منطلقات الماركسية بشكل عام وآمنت بهيمنة العقل وحرية العقيدة والتعبير ودافعت عن العدالة الاجتماعية والتضامن والتسامح والمساواة ونبذ التمييز وناهضت كل أشكال الاستغلال والاضطهاد الاجتماعي والسياسي للبشر. وقد ظهر في بداية القرن الماضـي شـريحة مـن المثقفين تشتبك كتاباتهم مع الرؤية اليسارية – مثل يعقوب صروف وله روايتين همـا: فتـاه مصر (1905) وفتاة الفيوم (1908) والحقيبة الزرقـاء (1906)، ثـم روايـة آدم الجديـد (1914)، وفرح انطون نشر: الدين والعلم والمال (1903)، (الوحش الوحش الـوحش) ثـم أورشليم الجديدة (1904) .. أقول أن الرواد الثلاثة يعقوب صروف، ونيقولا حـداد، وفـرح

أنطون، مجرد أمثلة على اشتباك الرؤية اليسارية بالشكل الروائي والقصصي في مرحلة التحضير لمرحلة القصة والرواية على نحو ناضج، ولا يعيب محاولات الثلاثة أنها كانت حافلة بالخطابة والتعليمية والوعظ، فقد كان ذلك هو الطابع العام لمرحلة بأكملها سبقت ثورة 19 ورافقتها وحرثت التربة لبلورة الطابع القومي للثقافة.

لقد صحح اليسار المصري – وبالأحرى الرؤية اليسارية- النظرة إلى الطبقة العامة على يد محمد صدقي، وإلي الفلاحين على يد الشرقاوي، كما قام بتصحيح النظرة إلى المرأة على يد لطيفة الزيات عام1961 هي الرواية النسائية الأولى التي تطالب بحرية المرأة، وتربط استقلالها الذاتي باستقلال وحرية الوطن، وتاريخ الكتابة النسائية قبل لطيفة الزيات المناضلة اليسارية – تاريخ طويل، بدأ من عائشة التيمورية وملك حفني ناصف، وغيرهما، إلا أن لطيفة الزيات هي التي قدمت أول رواية نسائية تخرج بالمرأة من الدائرة النسائية إلى الدائرة الإنسانية، ومن الوجدان الخاص إلى الوجدان العام، وفيها تسطع حقيقة أن حرية المرأة جزء من حرية الوطن، وأن الحديث عن تحرير المرأة في وطن محتل أو أسير للهيمنة والتبعية أمر مستحيل.

المؤكد أن خيط الرواية اليسارية لم ينقطع في تاريخ الأدب المصري، منذ المرحلة التمهيدية التي ظهر فيها يعقوب صروف، وفرح انطون، ونيقولا حداد، مرورا بنشأة القصة والرواية، ثم كان ظهور تلك الرؤية بقوة أكبر في الأربعينيات، بحيث شكلت الوجه الرئيسي للثقافة منذ قيام ثورة يوليو حتى نكسة 1967 التي تلتها مرحلة من الركود.

ويكفي اليسار المصري أنه أول من استطاع في القصة والرواية أن يغير جذريا النظرة إلى قضايا المجتمع المصري الكبرى، الأرض والعمال والمرأة، لتصبح نظرة صحيحة فنيا وفكريا، ويكفي هذه الرؤية المستنيرة شرفا أنها وهبت إبداعها وبذلك دماءها لتحويل مجري الثقافة، وهي داخل المعتقلات وخارجها، ورغم القضبان والملاحقة، وأن تأثير تلك الرؤية العظيم لم ينقطع، ومازال مستمرا، نقرأه في كل سطر مبدع وحي عند كتاب آخرين كبار..

وفي هذه الدراسة نحاول تسليط الضوء على الرؤية اليسارية في أدب نجيب محفوظ في محاول من جانبنا أن نوضح دور الأدب في تنوير الواقع، ودور الأدب في البحث عن الحرية المنشودة والأمل في مستقبل أفضل، ومن خلال تلك الدراسة نتمكن من توجيه القارئ إلى

تعميق وعيه ونظرته للأدب، ومن خلال الدراسة يتمكن القارئ والمثقف أن يعيد النظر فيما قرأ ليلتفت إلى مناطق ربما تجاهلها فيما سبق .. إن مهمة الناقد ومهمة الكاتب لا تكمن في الإمتاع فقط وإنما في إيقاظ وعي القارئ .. يقول مجاهد عبد المنعم مجاهد .. وواجب الكاتب أن يقدم صورة للعالم وأن يشهد عليه، كما أن واجبه هو أن يتخذ لنفسه موقفا ضد جميع المظالم من أي مصدر أتت، إن وظيفته ليست إبهاج الجمهور، بل الإمساك به من خناقه وإعادة تنظيم العالم على أنه صادر عن الحرية على أساس أن الأديب شاهد على العالم وعلي العصر. والهدف الغائي للأدب هو إعادة تنظيم هذا العالم لا عرضه كما هو ولكن على تقدير أنه صادر عن حرية الإنسان. والكتابة دعوة موجهة من الكاتب إلى حرية القارئ لتكون عونا للكاتب على إنتاج عمله والإنسان وحده موضوع الأدب على أساس أن الإنتاج الأدبي مشروع(13) ..

في الخاتمة نقول إننا نمضي في الدرب حاملين القلم من أجل الإيقاظ، إيقاظ المجتمع بأكمله على هدف واحد منشود .. « الحرية » حرية الإنسان وحرية الأوطان .. ذلك هو الأمل والحلم الذي نبتغيه من خلال الكلمات ..

***

هوامش المقدمة

1ـ د. عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه، دار الفكر العربي ط 7، 1978، ص20.

2ـ أحمد الخميسي: اليسار المصري في الرواية المصرية (في) اليسار في الثقافة المصرية، دار العالم الثالث. القاهرة 2005، ص 42.

3ـ د. صلاح قنصوه: نظرية القيم في الفكر المعاصر، دار التنوير، بيروت ط2 1984، ص 221.

4ـ محمود أمين العالم: مفاهيم وقضايا إشكالية، دار الثقافة الجديدة، ط1 1989، ص214.

5ـ السابق: ص216.

6ـ د, عبد المنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب، دار الثقافة القاهرة، 1976ص127.

7ـ السابق: ص215.

8ـ محمود أمين العالم: السابق ص224-228.

9ـ ديفيد بشبندر: نظرية الأدب المعاصر. ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة 1996، سلسلة الألف كتاب الثاني (206) ص137.

10ـ د. صلاح قنصوه: الدين والفكر والسياسة، دار الكلمة 2003 ص101.

11ـ السابق: ص78، 79.

12ـ راسل جاكوبي: نهاية اليوتوبيا، ترجمة: فاروق عبد القادر، سلسلة عالم المعرفة (269) الكويت ص161، 162).

13ـ مجاهد عبد المنعم مجاهد: فلسفة الفن الجميل، الأنجلو المرية 1986 ص131.

صورة الاشتراكي في أدب نجيب محفوظ

مقدمة في نشأة الفكر الاشتراكي في مصر :

بدأت الدعوة للاشتراكية في مصر مع اشتداد الحركة العمالية في أوائل القرن العشرين على يد بعض المفكرين أمثال شبلي شميل وسلامة موسي0 بل أن اسم (الاشتراكية) قد جذب البعض إلى تأسيس حزب باسم : " الحزب الاشتراكي المبارك"، ثم قامت الحرب العالمية الأولى ، وتمخضت تلك الحرب بالنسبة للطبقة العاملة عن تزايد أعدادهم من جهة ، وتزايد الصبغة المصرية فيهم بعد رحيل عدد كبير من العمال الأجانب إلى بلادهم ، من جهة أخري 0 وفي الوقت نفسه ، وبالنسبة للاشتراكية ، فقد تمخضت الحرب عن أكبر انتصار للمبادئ الاشتراكية شهده العالم حتى ذلك الحين بانتصار الثورة الاشتراكية في روسيا سنة 1917 ، والتي ترددت أصداؤها في مصر0

وجاءت ثورة 1919 لتهيئ تربة خصبة للعناصر الثورية فانتشرت المنشورات الشيوعية حتى بلغت أنباؤها سعد زغلول في باريس ، وأخذت الدعوة إلى الشيوعية تجري علنا في ميادين القاهرة ، حتى اضطرت السلطات المصرية والبريطانية إلى استصدار فتوى ضد الشيوعية من الشيخ " محمد بخيت المطيعي " ، ولكنها أثارت استياء عاما بين جنبات الرأي العام المثقف وكانت أكبر دعاية للفكر الماركسي0

في تلك الفترة الثورية الحافلة جرت محاولتان وطنيتان لتأليف حزب اشتراكي، تعرضتا لاستقطاب من جانب اليمين الليبرالي واليسار الماركسي0

أما المحاولة الأولى ، فهي التي قام بها الدكتور منصور فهمي ، أستاذ الفلسفة في الجامعة المصرية ، مع بعض أصدقائه ومنهم عزيز فهمي ومصطفي عبد الرازق، وعزيز مرهم ، ومحمود عزمي ، ومحمد حسين هيكل لتأليف حزب اشتراكي0

أما المحاولة الثانية ، فكانت تلك التي قام بها كل من سلامة موسي ، الذي كان يمثل الفكر الفابي مع الدكتور على العناني ومحمد عبد الله عنان وكلاهما يمثل الفكر الماركسي المتكيف مع الظروف المصرية0 وهذه المحاولة استقطبتها العناصر الماركسية ، ممثلة في الحزب الاشتراكي الذي ألفه " جوزيف روزنتال " في الإسكندرية من العناصر الأجنبية .. وأسفر هذا اللقاء بين العناصر الاشتراكية الوطنية والعناصر الماركسية الأجنبية عن تأليف

الحزب الاشتراكي المصري في منتصف أغسطس 1921. الذي تحول إلى الحزب الشيوعي المصري سنة 1922.

كان تأليف الحزب الشيوعي المصري في ذاك الحين ، في ظل الظروف شبه الإقطاعية والرأسمالية السائدة ، حدثاً ثورياً بكل المعايير0 وكان برنامجه يحمل معالم الفكر الماركسي0

ولم يلبث الحزب أن أخذ يبدي في بيانه مبادئه التي قسمها إلى ثلاثة أقسام :

المبادئ السياسية : وهي تصطبغ بصبغة أممية فاقعة ، والمبادئ الاقتصادية وهي التـي يحدد فيها موقفه من العلاقات الإنتاجية ، فتجمع بين المبادئ الشيوعية والاشتراكية 0

المبادئ الاجتماعية : تعتمد الوسائل الفابية للوصول إلى الاشتراكية .. ومن ذلك يتضح من البرنامج بصفة عامة ، مزجه بين شيوعية النظرة للتحليل والأهداف ، وفابية الوسـائل 0 على أن الانشقاق الايديولوجي لا يلبث أن يقع بعد عام واحد ، لينتهي الائتلاف بـين الفكـر الماركسي والفكر الفابي 0 ذلك أن العناصر الشيوعية لا تسـتطيع تحمـل الوسـائل الفابيـة للنضال0 وقد كان ذلك بداية صراع بين الفكر الفابي والفكر الماركسي فيشن سلامة موسـي هجوما شديدا على الحزب .. وقد كان النقد الذي وجهـه سـلامة موسـي ، نقـدا وجيهـا وموضوعيا ، ذلك أنه من الناحية النظرية ، في مرحلة التحـرر الـوطني تكـون الأولويـة للاستقلال ويأتي بعد ذلك التحرر من الاستغلال 0 أو كما عبر سلامة موسـي فـي قولـه : استقلالنا الغاية الأولى ، والاشتراكية الغاية الثانية0

وكان من أهم ما فعله الحزب الشيوعي وضع برنامج للفلاحين يتضمن خطوط الثـورة البورجوازية الديمقراطية 0 فقد طالب بمصادرة جميع الأراضي المملوكة للأفراد التي تزيـد على مائة فدان بدون تعويض وتوزيعها على الفلاحين الذين لا يملكون 0

ثم وجه الحزب إلى سـعد زغلول بعد اعتلائه الحكم خطابا مفتوحا ، قام بطبعة ونشره، طالبه فيه بالاعتراف بنقابات العمال والفلاحين وحقها في الـدفاع عـن حقوقهـا اقتصـاديا واجتماعيا وسياسيا ، وتكليف لجان الوفد المركزية في كل أنحاء القطر بأن يقومـوا بتنظـيم فقراء الفلاحين في نقابات ترفع مستواهم أسوة بإخوانهم في أنحاء العالم0

وعلي كل حال .. فإن التجاء الحزب الشيوعي إلى سياسة التطرف وتفجير الصـراع مع أصحاب الأعمال بطرق وأساليب تجاوزت الحدود القانونية .. لم يلبث أن أوقعـه فـي تصادم مع وزارة سعد زغلول التي كانت في ذلك الحين تتعرض لحملة اتهام مـن الصـحف الأجنبية بمعاداة المصالح الأجنبية .. فقد تم القبض على أعضاء الحزب في 5 مارس 1924 .. وفي الوقت نفسه فإن النشاط العلني للحزب الذي كان أكبر عامل مساعد على انضمام عدد كبير من الأعضاء إليه ، قد اختفـي ، وأصبحت الحركة سرية وبذلك لقيت اهتماما خاصا من إدارة الأمن العام التي أخذت تتابع الخلايا بالاعتقالات واحدة إثر الأخرى ، ورحلت عدداً من القادة الشيوعيين إلى خارج البلاد وبعد ضرب حكومة زيور للتنظيم الجديد وتقديم أعضـاءه للمحاكمة في 30 مايو 1925 ، انتقلت الحركة إلى يد الأجانب بصفة رئيسية، حتى أنه عندما قبضت حكومة النحاس في 8 مايو1928 على التنظيم الشيوعي الجديد كان يتكون من 21 من اليونانيين والإيطاليين بينهم مصري واحد0

وفي الوقت الذي كان ينحسر فيه مد الفكـر الاشـتراكي فـي النصـف الثـاني مـن العشرينيات، كان يتقدم الفكر الراديكالي الفاشي والإسلامي0 وفي الوقت الذي كانت تنهار فيه التنظيمات الشيوعية ، كانت تقوم تنظيمات الإخوان المسلمين ومصـر الفتاة ، وقد واكب ذلك كله تقدم المد الفاشي والنازي في أوربا 0

وقد هيأت الحرب العالمية الأولى الفرصة لقيام حركة شيوعية عارمة بعد الحـرب .. كذلك فعلت الحرب العالمية الثانية .. فقد تأسس (حزب العمال والفلاحين الشيوعي المصري) عام 1957.

ومع قيام ثورة 23 يوليو ، حانت الفرصة لقطف ثمار الفكر الاشتراكي الثوري ، ومن عجب أنه قبل أن تبدأ الثورة هذه التجربة ، كانت قد زجت بالاشتراكيين في السجون[1].

الاشتراكي في أدب نجيب محفوظ :

إن الاتجاه الاشتراكي الذي نما في مصر في بدايات القرن الماضي قد حـددة نجيـب محفوظ خلال إبداعاته المتعددة بصورة أو بأخرى ، بحيث يتمكن القارئ لأدبه أن يقف علـى مختاف الاتجاهات الفكرية التي سادت مصر في الأربعينيات وحتى آخر إصدارته .. ويهمنا

في هذا العرض أن نقف على ملامح هذا الاتجاه لنعرف هل قدم نجيب محفوظ صورة حقيقية أو صورة واقعية للاتجاه الاشتراكي الشيوعي المصري أم لا ؟ ولنعرف أيضا هل أيد نجيب محفوظ هذا الاتجاه أم كان له موقفاً آخر تجاهه ؟ .. لا يمكـننا أن نجيب على تلك الأسئلـة إلا بعد استعراض أعمال نجيب في هذا الصدد .. وقد اخترنا بعض نماذج رواياته منهـا 0 خان الخليلي ، القاهرة الجديدة ، الكرنك ، ميرامار .. على أمل أن تتاح لنـا الفرصـة فـي المستقبل لكي تتناول كل الأعمال لنقدم رؤية كاملة للاتجاه الاشتراكي في أدبه عامة00

ويلاحظ أن المفكر الاشتراكي عند نجيب محفوظ يتسم بسـمات خاصـة تميـزه عـن الاتجاهات الفكرية المختلفة .. وأول هذه السمات الوعي الشديد بالواقع والأمل في تغييره .. وقد صوب نجيب محفوظ عينه على هذا النمط من الفكر أو تلك الأيديولوجيا الفكرية والتي لا يمكن تجاهلها بأي حال من الأحوال ، وتكاد معظم أعماله تحتوي على هذا النوع من المفكرين وتكشف عن طبيعة خاصة له في نظرته للأمور وتحليله لها ونقده للواقع المحيط بـه .. وإذا كان نجيب محفوظ يعرض لنا نماذج من أبطاله اليساريين ، فهل كان نجيب يتعاطف مع هـذا الفكر أو يؤمن به ؟ ربما يكون ذلك صحيحا إلى حد ما .. أيضا هل يعرض نجيب محفـوظ لصورة الماركسي بشكل يجعل القارئ ينجذب إلى هذا البطل ويقتنع برؤيته ؟ هذا ما نحـاول أن نتبينه من خلال تناول أكثر من نموذج والتي يعرضها في رواياته العديدة ..

وفي هذا العرض أحب أن أعرض لتلك النماذج المختارة في أعماله بشكل تحليلي لكـي يتسني لنا في النهاية أن نكون صورة عن موقف نجيب محفوظ وأهم ملامح تلك الصورة0

ومازلنا نُذَكر بالأسئلة التي ينبغي علينا أن نركز عليها ونحاول خلال الصفحات القادمة البحث لها عن إجابة .. كيف يصور الأدب صورة الإنسان الاشتراكي أو الفرد الذي يفكـر بطريقة يسارية ؟ هل يقدمه بصورة إيجابية أم بصورة سلبية ؟ وما موقف العامة مـن هـذا الإنسان ؟ ونسأل أيضا لماذا لا يكون هؤلاء الأفراد مؤثرين بقدر كبير وفعال في المحيطـين بهم ؟ للإجابة على تلك الأسئلة علينا الاقتراب من شخصيات نجيب محفوظ في أعماله ، وفي القلب منها : " أحمد راشد " في خان الخليلي و" على طه " في القاهرة الجديـدة و" منصـور باهي " في ميرامار و" حـلمي حمادة " في الكرنك .. وهذا ما سوف نفعله0

♦

أولا :

أحمد راشد في خان الخليلي :

نموذجنا يجلس على مقهى الزهرة وهنا نقترب إليه .. حول أحمد عاكف اهتمامه إلـى أحمد راشد ، فوجده شابا في ريعان الشباب ، مستدير الوجه ممتلئه كبير الرأس تكـاد تخفـي صفحة وجهه نظارة سوداء داكنة السواد 0 أثار هذا الشاب اهتمامه لأن أحمد راشد محـام ، والمحامِ رجل متعلم ، والمحاماة مهنة طمع فيها أحمد عاكف منذ أول عهده بالآمـال ولكنـه عجز عن تحقيق أي منها وإن لم يقر بعجزه قط ..

وبينما أقبل المعلم " نونو " و" كمال خليل أفندي " على " أحمد عاكف " أيما إقبال ثابر " سليمان عته " على جموده وتجهمه كأنما نسيه نسيانا تاما !! أما الأستاذ أحمد راشـد فجعـل ينصت إلى حديث يذيعه الراديو ..

وأخذ المعلم نونو يحدث أحمد عاكف عن الحي الجديد مثنيا عليه بما يعلم حتـى علـق أحمد راشد على كلامه قائلا : هذا الحي هو القاهرة القديمة ، فهو بقايا متداعية حقيقة بأن تهز الخيال وتوقظ الحنان وتثير الرثاء ، فإذا نظرت إليها بعين العقل لم تـر إلا قـذارة تقتضـينا المحافظة عليها التضحية بالبشر ، وما أجدر أن نمحوها لنتيح للناس التمتع بالحيـاة الصـحية السعيدة !

هنا نتمكن من أن نُكّون رؤية عامة عن شخصية (أحمد راشد) .. إنه متعلم ويمـتهن مهنة تلقي الاحترام والإجلال في ذلك العصر – الأربعينيات – إلى جانب ذلك نجده يعلو عن الأحاديث الثرثارة إلا إذا استدعي الأمر ذلك ، فنجده ينصت إلى حـديث يذيعـه الراديـو ، والراديو في ذلك العصر هو الوسيلة العصرية التي يعْرفُ من خلالها الناس كل المعلومـات والمعارف .. إنه جهاز العلم والمعرفة والتسلية .. وعندما علّق أحمد راشـد علـى وضـع القاهرة القديمة نجده ينظر إليها بمنظار مختلف عن الجميع فهو يري فيها عنواناً للحفاظ علـى التخلف والجهل والقذارة .. إنه يتحدث بلغة العقل الناقد والقادر على التجاوز ، فهو ليس قابعاً في اللحظة ومستمسكاً بالقديم والتراث 0 إنه يتطلع إلى ما يجب أن يكون 0 هذا هـو حـديث العقل ورؤيته ولذلك يري .. (أن نمحو القاهرة القديمة ليتاح للناس التمتع بالحياة الصـحية السعيدة) ..

ولأن المفكر الاشتراكي كما رأينا يمتلك الوعي ونفاذ البصيرة والرؤية العقلية المستنيرة نجده دائما غير مستحب وغير مرغوب في أوساط كثيرة .. وهذا ما شعر به أحمد عاكف.

وتنبه أحمد عاكف إلى ما في قول صاحبه من جِده عسي أن تنزله مـن القـوم منزلـة المحدث الماهر والمفكر الذكي ، خاصة وأن بشهادته الحكومية – ليسانس القـانون – مكانـة يدين لها الجهلاء والسذج، فخاف أن يمتاز عليه ، فوثب للنضال ، وأجمع على معارضته بأي ثمن .. هنا نجد أن أحمد عاكف لديه عقده نفسية خاصة به من موضوع " الشـهادة " لأنـه حاول أكثر من مرة في الحصول على ليسانس الحقوق ولم يوفق .. وعندما وجد أحمد عاكف أن أحمد راشد محامي وحاصل على تلك الشهادة شعر بالحقد واستجمع كل أسلحته لمواجهـه خصمه وهذا أمر يمثل معادل موضوعي نفسي لكي يعيد لنفسه قيمتها ولكنها في الحقيقة خداع للذات .. وأجمع على معارضته بأي ثمن .. فقال ..

- ليس القديم من البقاع مجرد قذارة ، فهو ذكري قد تكون أجل من حقائق الواقع ، فتبعث في النفوس فضائل شتي ! .. إن القاهرة التي تريد أن تمحوها من الوجود هي القاهرة المعزيـة ذات المجد المؤثل .. أين منها هذه القاهرة الجديـدة المستعـبد ؟00

ووقع هذا الكلام من نفوس القوم موقعا حسناً قرأه في أعينهم ، فَسـر بـه ، وأراد أن ينتهز الفرصة ليعلن عن علمه فقال :

- معذرة يا أستاذ أحمد فقد قرأت عن تاريخنا مجادات جعلت تعلقي به أمـرا مقضـيا! (ص 0(51

فولاه القوم نظرات دلت على الاهتمام ، وفسر هو ذلك الاهتمام بأنه إكبار فرقص قلبـه طربا ، ولكم ود لو يستطيع أن ينفذ إلى عيني أحمد راشد خلال عويناته السـود ليقرأهـا .. ودون الدخول في تحليل النواحي النفسية لأحمد عاكف فإن ما يهمنا في هذا الأمر هو الـدافع الداخلي لأحمد عاكف ، أنه يريد أن يتفوق وأن يظهر أمام الجميع أنه أفضل وأنـه الأحسـن والأقدر من أحمد راشد رغم أنه يعلم على المستوي الداخلي أن العكس هو الصـحيح 0 إنـه الخداع الذاتي فهو لا يريد أن يعترف بجوانب ضعفه ولكنه يريد أن يشعر بالتميز والتفوق بأي وسيلة كانت .. ومن خلال الحوار الآتي سوف يتضح لنا كيف يشفق على رأي محدثه ويلتزم الحدود00

وسأله كمال خليل :

- ولماذا تدرس هذه المعارف يا (أستاذ) ؟ أتحضر لشهادة ما ؟

وعلى قدر سروره بلقب أستاذ غص ببقية السؤال فقال باستكبار :

- أية شهادة تستوجب هذه الدراسة الطويلة الشاملة ؟! ما الشهادة إلا لعبة يستبق إليها الشبان ، أما دراستي فلا غاية لها إلا العلم الحق ، وربما مهدت بها يوما إلى التأليف المنتج0

فسأله أحمد راشد وعلي ثغرة ابتسامة أحنقته :

ما معني أن الشهادة لعبة ؟

فقال أحمد عاكف (كاظماً حنقه) : الشهادة ليست دليل العلم !

- أهي دليل الجهل ؟

فأخذ غيظه يفور حتى أجهده أن يكتمه ، ثم استدرك قائلا :

- أعني أن الشهادة هي الدليل على أن شابا حفظ بعض المواد بضع سنين ، والعلم الحق شيء غير هذا البته ! (ص 51)0

فابتسم أحمد راشد ابتسامة غامضة وأمسك عن الجدل ، وكان يعطف على رأي محدثه في الشهادة بل أنه لم يغب عنه الحدة التي يسوق بها رأيه ، مما جعله يميل إلى فرض احتمال وجود أسباب أخري لذاك الرأي غير التي أعلنها 0 ورحب أحمد عاكف بصمته لأنه يـرجح كفته عليه أمام (العوام) الذين يجالسونهما ! (ص52)0

ما يمكن ملاحظته بوضوح هو قدرة أحمد راشد على فهم واقع محدثه ولذلك لم يرغـب في خوض حديث عقيم لا يثمر .. تلك ميزة الثقافة الواعية بينما على النقيض نجـد الثرثـرة عند الشخص الململم لبعض المعلومات والمعارف دون منهج .. هنا نقارن بين ثقافة المـنهج وثقافة العشوائية ..

قليل من الاتفاق .. كثير من الاختلاف ..

بيْن أحمد عاكف وأحمد راشد بعض نقاط الاتفاق ولكنها قليلة جداً إذا قورنـت بنقـاط الاختلاف وهي كثيرة جدا جدا .. ونلمس هذه الجوانب من خلال الحوارات التي تدور علـى مقهى الزهرة ..

سأل المعلم " نونو " " أحمد عاكف " : ألا تحب أن تتسلي بلعـب شـيء ؟ .. فقـال ببساطـة : لا أدري عن الألعاب شيئا !! فضـحك كمال خليل قائلا لأحمد عـاكف : إليـك الأستاذ أحمد راشد تسامرا معا ريثما نلعب ساعة ..

وتنحي أحمد راشد ليوسع للاعبين .. فصار بجانب أحمد عاكف وشعر الرجل باقترابه فتغير شعوره العجيب وتوثب مرة أخري للنضال والعراك .. والتفت الشاب نحوه قائلا برقة :

- كيف حالك يا أستاذ ؟! لا تحسبن أني قديم عهد بخان الخليلي لقد سبقتك إلى هنا بشـهرين فابتسم عاكف مسروراً بتودد الآخر إليه ، وقال كالمتسائل :

- الغارات أيضا ؟!

- تقريبـ ـا ..

قال أحمد عاكف وقد أخفض صوته :

- يا له من حي مزعج ! (ص 54)0

أجل - أجاب أحمد راشد - : ولكنه مسل وغريب وحافل بالفنون والنمـاذج البشـرية المدهشة0 انظر إلى القهوجي الذي يحدثه عباس ، شُفْه أنظر إلى عينيه الذاهلتين ! إنه يزدرد نصف درهم من الأفيون كل أربع ساعات ، ويمضي في عمله كالحالم لا يفيق أو بالأحرى لا يرغب أن يفيق 0

ويلاحظ بعض نقاط الاتفاق بين الاثنين في الجهل بالألعاب التي تمارس في القهـوة .. وأيضا حب الثقافة يجمع بينهما إلى حد كبير .. ولكن الفرق كبير بينهما أيضا .. أحمد راشد لا يتبرم بالحي وإنما يتقبله بل ويري فيه من المحاسن الكثير ، له عين ثاقبة فقد لحظ صاحب

القهوة (المعلم زفته) ومزاجه العجيب في تناول الأفيون من أجل أن يعيش في توهان دائم لا يفيق منه .. وفي المقابل فإن أحمد عاكف ضيق الأفق والنظر معا ..

أحمد راشد كمفكر اشتراكي يمتلك الوعي ، يريد أن يقول كل شيء له عيوبه ومميزاته وعلينا أن نقف عند كل منهما ومن الخطأ أن نقف عند جانب واحد.. هو يوافق على أن الحي مزعج ولكن يري في نفس الوقت أنه مسل وحافل بالفنون.. وسأل عـاكف محدثـه : هـل أستطيع أن أكب على دراستي في مثل هذه الضوضاء ؟

وهذا السؤال ينم عن عقلية عاكف القاصرة ، فأي دراسة هو التي يدرسها؟؟ إنها محاولة منه لكي يظهر أمام خصمه بعلو مكانته وشأنه وأنه رجل مشغول وشغوف بالدراسـة والعلـم رغم أنه يعلم علم اليقين بأنه كاذب مئة في المئة .. فعندما تحدث راشد عن مـدمن الأفيـون القهوجي سرح عاكف مع نفسه لأنه يخاف شقاء الواقع ، كواحد من هؤلاء المدمنين ، ويهرب منه أيضا لأنه بعـزلته وبكتبه، يعتبر نفسه أسعد حالاً منهم ، فهل هو محق فـي ذلـك ؟!) بالطبع هو ليس أسعد حالاً منهم بل هو أشقي لأنه مشغول بعزلته وكتبه ، يضاف إلـى ذلـك تصوره المريض بأنه ذا قيمة فكرية ومثقف كبير ومهم .. وإذا عدنا للسؤال الـذي طرحـه عاكف على أحمد راشد 0 نجده يرد عليه قائلا: ولم لا ؟ الضوضاء قوية حقا ، ولكن العـادة أقوي ، وسوف تألف الضوضاء حتى ليزعجك سكونها وقد كنت بادئ الأمر ألقاهـا متجهمـا متكدراً بائساً ، أما الآن فتراني أكتب مرافعاتي وأراجع مواد القانون هادئاً مطمئناً وسط هـذا الدوي الذي لا ينقطع . ألا ترى أن العادة أمضي سلاح نواجه به واقعنا عبر الدهر ؟!0

يلاحظ أن رد أحمد راشد يتسم بأنه علمي تماما فهناك تجارب في علم النفس تثبـت أن الفرد يتمكن من التحصيل والتركيز مع الضوضاء المستمرة غير المنقطعة وذلك لأن الإنسان يدخل مرحلة الاعتياد والتكيف مع تلك الضوضاء فالعامل في المصنع يتقن عمله جداً رغم كل الضوضاء المحيطة به .. ورأي راشد هنا مبني على فكرة علمية حقيقية وهذه سمة المفكـر الاشتراكي المتسلح دوما بالعلم ونظرياته وقوانينه0

فكيف رد عليه أحمد عاكف :

هز رأسه موافقًا ، وقال كأنه يستكثر أن ينفرد الآخر ولو بهذا القول المبتذل:

- ولذلك قال ابن المعتز :

إن للمكروه لذعة هـــم   فإذا دام على المرء هانا

فابتسم أحمد راشد ابتسامته الغامضة 0 وكان لا يحفظ الشعر ويحتقـر الاستشـهاد بـه فتساءل في رفق : أأنت يا أستاذ عاكف من الذين يستشهدون بالشعر؟

فتساءل عاكف بإنكار : وماذا ترى في ذلك ؟ 000

- أريد أن أقول أنني أكره الاستشهاد بالشعر لأنني أكره الرجوع إلى الماضي0 أريد أن أعيش في الحال وللمستقبل وحسبي ما في الماضي من حكماء هم أهل للإرشاد والتوجيه! وكان أحمد عاكف على عكس صاحبه يحسب أن الماضي أنطوي على العظمة الحقيقية ، أو أنه لم يعرف غير بعض نماذج العظمة الماضية ولا يدري شيئًا عن عظماء (عصرنا) فثارت ثائرته وقـال منكراً :

ـ وفيم إنكار عظمة الغابرين وفيهم الأنبياء والرسل !

ـ لعصرنا رسله كذلك !

ـ ومن رسل العصر الحاضر !

ـ اضرب مثلا بهذين العبقريين : فرويد وكارل ماركس !

وشعر عاكف وكأن يدا تضغط على عنقه فتكتم أنفاسه ! بل شعر بحـرج عميـق فـي كرامته ، لأنه لم يسمع قبل الآن بهذين الأسمين ! وأضمر لصاحبه غضبا جنونيا، ولكـن لـم يسعه إظهار جهله فهز رأسه هزة العارف بالعالم 000 (ص 56)

ومن الحوار السابق يتضح لنا الفرق بين الأثنين فأحمد راشد يفكر في المستقبل وتفكيره أكثر واقعية وهوينتقل من الحاضر إلى المستقبل .. وهذا ما يمكن أن نسميه الرؤية المستقبلية والفكر التقدمي .. بينما تفكير أحمد عاكف منحصر في الماضي فهو يرى أن كل القيم وكـل ما هو ثمين كان في الماضي ، إن تفكيره تراجعي إلى الوراء .. وهنـا نقـرر أن التفكيـر الاشتراكي هو تفكير يرتكز على الحاضر ويتجه إلى المستقبل 0 إنه الوعي بالحاضر وآلياتـه والأمل في تغييره إلى الأفضل المنشود ..

ويسأل أحمد عاكف : أتراهما يضارعان العباقرة الأولين ؟

وكان سرور المحامي الشاب بفوزه على إنسان مثقف لا يعادله سرور ، فرغب في المناظرة رغبة قوية ، وأدني كرسيه إلى كرسي صاحبه حتى لم يعد يفصل بينهما شئ وقال بصوت لا يسمعه سواه :

لقد هيأت فلسفة فرويد للفرد فرص النجاة من أمراض الحياة الجنسية التي تلعب في حياتنا الدور الجوهري ، وكشف له كارل ماركس عن سبل التحرر من الشقاء الاجتماعي ! أليس كذلك ؟ (ص 57)

يتحدث أحمد راشد عن فرويد وماركس .. فماذا يعني كلا منهما ؟ فرويد يفسر الإنسان من الداخل إنه يعري الإنسان ويكشف عوراته ويسقط كل التابوهات المقدسة التي تربي عليها .. أما ماركس فإنه يفسر له الواقع ومدي الاستغلال الذي يمارسه الإنسان على الإنسان0

فرويد يكشف العورات الداخلية والدناءات المخبوءة وماركس يكشف الدناءات والعورات الظاهرة .. كلا من ماركس وفرويد وضعا الإنسان أمام نفسه فكانا بمثابة المرآة التي تظهر كل ما حاول أن يخفيه .. بهذا المنطق آمن أحمد راشد واقتنع بهذا الفكر ومن ثم رفض قداسات العامة0

وخفق فؤاد الكهل الحاقد الغاضب ، ولم يدر هذه المرة كيف يعارضه فضلا على أن ينتصر ، فراغ عن مواجهته إلى التحايل عليه فقال بهدوء وصدره يغلي :

مهلا .. مهلا يا أستاذ ، لقد كنا مثلك متحمسين ، ولكن تقدم العمر ومداومة الفكر حقيقان بإلزام الإنسان حداً من الاعتدال ..

فقال أحمد راشد بلهجة لم تخل من حدة : ولكني أُحْسِن التفكير فيما أطلع عليه ؟

بغير شك إلا أنك شاب وستكسب بالعمر حكمة حقيقية ، ألم تسمعهم يقولون (أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة) !

- مثل قديم أيضا 0

- وحكيم 0

- لا حكمة في الماضي ..

- رباه !

- لو وجِدت في الماضي حكمة حقيقية لما صار ماضيا قط 0

- ودينننا ؟

فرفع الشاب حاجبيه دهشة ، ولو استطاع عاكف أن يستشف ما وراء النظارة الســوداء لرأي نظرة احتقار تورث الجنون 0 وغمغم : ياالعذابه. (ص57)0

وكان عاكف قد قرأ فلسفة إخوان الصفا الدينية فرغب أن يلخصها في كلمــات لمحدثــه البغيض ليدفع عن نفسه تهمة الأخذ برأي العوام في الدين من ناحية وليعرض على صــاحبه كما عرض عليه ، فقال :

- إن في الدين ظاهراً حسيا للعوام وجوهراً عقليا للمفكرين ، فهناك حقائق لا يضيق المثقــف بالإيمان بها مثل الله والناموس الإلهي والعقل الفعال0

- فهز الشاب منكبيه إستهانة وقال بأن العلماء المعاصرين يعْلمون ما في الذرة من عناصر ، وما وراء عالمنا الشمسي من عوالم أخري ، فأين الاــه ، وما أساطير الديانات ؟ وما جدوي التفكير في مسائل لا يمكن أن تحل ، وبين أيدنا مسائل لا حصر لها يمكن أن تحل وينبغي أن نجد لها حلاً ؟

ثم ابتسم الشاب ابتسامه سريعة وقال وقد غير لهجته المتدفقة : لا يجوز أن نشرك ثالثا من جماعتنا في هذا الحديث !

- طبعا .. طبعا يا أستاذ ، ولكن لا تنسي أن أول العلم كفر دائم0(ص 58)

إننا نلحظ وجه الاختلاف بين أحمد راشد وأحمد عاكف .. فالأخير يؤمن بالدين وقــرأ إخوان الصفا وغيرهم فإذا بأحمد راشد يزعزع تلك الثقة وذلك الإيمان بل يقذفه بطلقات تجعله يهتز ويتوتر ويشعر بالاضطراب .. فالدين أساطير عند أحمد راشد ، والله غير موجــود .. وأحمد راشد يظن أنه يناقش مثقفا حقيقيا له إدراك واسع يفهم ويعي ما يقول .. ولأن المجلس

هو المقهي فقد أدرك أحمد راشد خطورة ما يقول وما يصرح به ولذا أوصي أحمد عاكف أن يكون هذا الكلام بينهما فقط .. فيقول له (لا يجوز أن نشرك ثالثا من جماعتنـا فـي هـذا الحديث) .. فهو يعلم يقينا بأن مثل هذا الحديث سيجر عليه اللعنات 0 ووافقه أحمد عـاكف وهو في ذهول ولكن يتضح من الحوار أن أحمد عاكف لم يؤمن بالعلم رغم ادعائه الـ ـثقافة والمعرفة بقوله .. (طبعا .. طبعا يا أستاذ ، ولكن لا تنسي أن أول العلم كفر دائم) هذا هو تصور أحمد عاكف عن العلم .. والكفر .. والإنكار الكامل للدين ولله !!

ونجيب محفوظ هنا يصور الشيوعي بأهم سمه فيه وهي قدرته على التحليـل والإدراك والوعي الحقيقي للأمور .. هو لا يكتفي بالظاهرة التي أمامه بل هو قـادر علـى التحليـل والإدراك والوعي والنفاذ إلى جوهر الأشياء وتلك سمة هامة في التفكير الفلسفي الصـحيح ، إلى جانب ذلك فإن لديه القدرة أن يجعل محدثه يشعر بالارتباك والحيرة فيما لديه من معرفـة وهذه سمه هامة يمكن أن نقول عنها " التطهير " مما نعتقد فيه دون تحليل وفحص .. وهـذا بالضبط ما حاول راشد أن يفعله مع عاكف .. زلزلة الاعتقاد المبني على أرض هشة ..

الاشتراكي بارع في نقد وتحليل الواقع الاجتماعي :

الاشتراكية كلمة تستخدم لتعريف مجموعة متكاملة من المفاهيم والمنـاهج والتنظيمـات والوسائل السياسية التي تشترك – بصرف النظر عن الاختلاف في التفاصيل – فـي رفـض المجتمع الرأسمالي 0 وتؤمن إيمانا لا يتزعزع بالتقدم الحتمي للحيـاة الاجتماعيـة ، وتؤكـد إرادتها الثورية في إقامة مجتمع أكثر كفاية وعدلا ، عن طريق الفعل الجماعي الواعي ، بغية تحقيق المساواة الفعلية بين جميع الناس وبين جميع الأمم .. وجميع الاشتراكيين متفقون على أن المصلحة العامة لا تتحقق تلقائيا وتحقيق المصلحة العامة هي نقل ملكية وسائل الإنتاج كلها ، أو على الأقل نقل ملكية وسائل الإنتاج الجماعية الرئيسية من ملكية الأفراد إلى ملكية الدولة وهو ما يسمي (التأميم)0

وجميع الاشتراكيين متفقون على أن السيطرة الواعية الفعلية على جميع مظاهر الحيـاة الاقتصـادية لا يمكن أن تتأتي إلا عن طريق التنظيم العقلي المنهجي العلمي للحياة الاقتصادية

، هذا التنظيم الذي يضع في الاعتبار المصلحة القومية العامة ، وهذا التنظيم هو ما يسمي بـ (التخطيط)0 جميع الاشتراكيين متفقون على أن التأميم والتخطيط – لا يكفيـان وحـدهما – وبطريقة تلقائية – لتحقيق الرفاهية الحضارية لجميع المواطنين ، وإنما لابـد أن يصـحبهما تغيير في أساليب الإنتاج والإدارة في الوحدات الاقتصادية ، بحيث يسير التشغيل وفقـا لإرادة جماهير الشعب العامل[2].

بهذه الرؤية السابقة للفكر الاشتراكي نجد أحمد راشد في مواقفه وفي ردوده على أحمـد عاكف وفي رؤيته لكل الأمور المحيطة به 00

وفي مقهي الزهرة والحوار والنقاش والجدل الدائر بين (راشـد) و(عـاكف)00 لفـت انتباههما جماعة من لابسي الجلاليب أحاطوا بمائدة عند مدخل القهوة ومضي كل مـنهم يعـد رزمة ضخمة من الأوراق المالية ، وكان منظرا يسـتدعي الدهشة لما فيه من أوجه التناقض ، فقال أحمد عاكف : لعلهم من أغنياء الحرب ! وقال الآخـر موافقـا : سـيهجرون طبقـة ويلحـقون بأخري0 إن الحـرب ترفع كثيرين من السفلة ! (ص 58)

قال أحمد راشد : السفلة ! هذا صحيح ولكن لا يوجد حد فاصل بين السـفلة والطبقـة العالية فارستقراطيو اليوم كانوا سفلة الأمس0 ألا تعلم أن الرعاع الغزاة نهبوا فـي الماضـي أراضينا بحكم الغزو ؟ وهاهم أولاء يكونون طبقة عالية متمتعة بالجاه والسؤدد والامتيـازات التي لا حصر لها0

ولأول مرة يميل أحمد عاكف إلى موافقته دون نزوع إلى المعارضة فقال : هذا رأيـي .. فاستدرك راشد قائلا : ويري ماركس أن العمال سيظفرون بالنصر النهائي فيصير العـالم طبقة واحدة متمتعة بالضرورات الحيوية والكمالات الإنسانية وهذه هي الاشـتراكية .. (ص 59)

ولاشك أن الماركسي أدهش أحمد عاكف وجعله يشعر بالدوار وأدرك عن يقين أن أحمد راشد يملك فكراً وثقافة أعلي مما يظن ، إنه لا يساويه مطلقا في فكره .. واعترف بينه وبين نفسه أن البون شاسع بين أفكاره الماضية وكتبه الصفراء وبين فكـر متجـدد ، قـادر علـى

المواجهة ويلمس كل القضايا المحيطة به .. لكم أذهله أحمد راشد ولكم شحن ذاتـه بالحقـد والكراهية وشعر بكم التفوق الذي يمتلكه أحمد راشد إذا قورن به ..

لزما الصمت كأنما أجبرهما التعب ، فجعل عاكف يفكر متألما : يالها من آراء فرويـد وماركس ، الذرات وملايين العوالم ، الاشتراكية! واخـتلس منـه نظـرات ملتهبـة بالحقـد والكراهية والحنق ، فما كان يظن قط أنه سيعثر في خان الخليلي على من يتحـدي ثقافتـه ، ويجبره على التسليم بأن فوق كل ذي علم عليم ! أفلا يظفر بالراحة في هذه الدنيا ؟!

وعند ذلك خلع أحمد راشد نظارته ليمسح عينيه بمنديله فاكتشـف محـاوره ان عينـه اليسري زجاجية ودهش لأول وهله ، ثم غمره شعور بالارتياح خبيث لأنه وجد في عورتـه سببا للاستعلاء عليه ... (ص 59)

أحمد عاكف يبحث عن أي ثغرة يشعر من خلالها بأنه أفضل من أحمد راشد وعنـدما اكتشف وجهه شعر بالسعادة وشعر بأنه الأفضل أو قل شعر بالاستعلاء تجاهه .. وكأنه يريد أن يقول أن تلك الثقافة وهذا الفكر العالي ما هو إلا محاولة لإكمال النقص ، ما هو إلا محاولة للتواجد بشكل أفضل بعد أن شوهته الحياة الواقعية .. وهذا دليل آخر على الفقـر الإدراكـي عند أحمد عاكف ، ما زال عاكف (عاكفا) على ذاته ومنحصرا ومتحوصلا حولهـا ومـازال يحاول أن يثبت لنفسه ولو خداعا أنه الأفضل !!

وفي المخبأ أثناء الغارة يلتقي أحمد عاكف مع أحمد راشد ويدور الحديث عن (المعلـم نونو) صاحب شعار (ملعون أبو الدنيا) .. قال أحمد عاكف : هذا رجل سعيد كما علمت ! فهز الشاب – أحمد راشد – رأسه بما يشبه الاحتقار وقال : سعادة عجماوات ، سعادة الجهـل والإيمان الأعمي .. فتش عن السعادة الحقه على ضوء العلـم والعرفـان0ويـدور الحـوار والنقاش بين عاكف وراشد أثناء الغارة : قال عاكف بغير تردد : كلا .. أنني مع الحلفاء قلبـاً وقالباً ، وأنت ؟! فسوي المنظار الأسود على عينيه وقال : لي أمل واحد : أن ينتصر الروس ويحررا الدنيا من الأغلال والأوهام ! (ص 71)

وطيلة المواقف يتضح لنا موقف أحمد راشد الرافض للوضع الاجتماعي المزري والذي لا ينم إلا عن الاستغلال ووقوع أغلبية الشعب تحت وطأة العبودية والاستغلال والفقر0 وبينما

نجد أن عين راشد على المجتمع وأحواله وأمله في تحرير المجتمع من كل آفات الاستغلال والعبودية ، نجد في المقابل أن عاكف غير مدرك وغير منتبه لحقيقة الواقع .. إنه الحوار بين الوعي واللاوعي حوار بين من يتطلع إلى مستقبل أفضل للجميع وبين من عكف على قراءات باهته غير منظمه وغير ممنهجة .. إنها المواجهة بين المثقف الحقيقي الواعي وبين مدعي الثقافة ..

وفي أول أيام رمضان وبعد الإفطار ذهب أحمد عاكف إلى قهوة الزهرة وجلس مع أحمد راشد .. مر بالمقهي جماعة من الصبيان والبنات ملوحين بالفوانيس وسائلين العادة (النكل والملاليم) .. التفت راشد لصاحبه قائلا بلهجة مرة: نحن شعب من الشحاذين وحفنة من أصحاب الملايين 0 فليس يتاح للشعب غير العمل الوضيع أو امتهان الشحاذة ، لا يوجد أسوأ من نظام يقضي على أناس بالانحدار إلى مستوي الحيوان الأعجم .. ولست أدري كيف تطيب الحياة لقوم عقلاء وهم يعلمون أن غالبية قومهم جياع لا يدخل بطونهم إلا ما يكاد يقيم أودهم ، جهلاء لا ترتفع عقولهم عن أدمغة الدواب ، مرضي ، تستوطن الجراثيم أجسادهم الهزيلة0 ألم يخطر لهم أن ينادوا بمبدأ المساواة بين الفلاحين والحيوانات مثلا ؟ فإن للحيوان على سادة الريف حقا في الغذاء والمأوي والصحة لامراء فيه ، وليس للفلاح مثل هذه الحقوق0

أحمد راشد المفكر الاشتراكي ينتقد كل أوضاع الاستغلال والاستعباد الاجتماعي السائدة في المجتمع ويوضح كم الانحطاط الاجتماعي الذي يعيشه المجتمع ، إنه ينتقد ويوضح استغلال واستبداد الأغنياء والحكام بالمجتمع 0 ويتعجب أحمد راشد ألم يخطر لهم مساواة الفلاحين بالحيوانات ؟ فإذا كان للحيوان حق على سادة الريف أليس من المنطق والعدل والانصاف والرحمة الإنسانية أن يكون للفلاحين حق أيضا ؟؟ إن مثل هذا النقد وتلك الرؤية الواعية النافذة لم يتطرق إليها عقل أحمد عاكف ولم يخطر له ذلك على بال إطلاقا 0 فلأول مرة يسمع انتقاداً وتحليلاً وتنظيراً للواقع بشكل منطقي وعقلاني لا يملك حياله إلا الصمت ، لأنه يدرك حق الإدراك أنه على حق .. لقد صمت أحمد عاكف عندما وجد من يتحدث عن العدالة الاجتماعية وهو في أعماقه يؤمن بتلك العدالة .. فأي عصر هو يعيشه ؟ أنه عصر العبودية وغياب أي مظهر من مظاهر العدالة .. والعدالة مفهوم لا يمكن إدراكه بذاته0 أو

بما يقال عن التطور العام للعقل الإنساني، وإنما ترجع جذورها إلى ظروف الوجود الماديـة ، أو ما يطلق عليه الفلاسفة اسم المجتمع المدني ، والبحث عنها – أي العدالة - يجب أن يدور في إطار المجتمع ، أي في ظل ظروف الإنتاج وعلاقاته التي تشكل بناءه الاقتصادي ، والتي لا تعدو أن تكون القاعدة الحقيقية التي يقوم عليها بناؤه الأخلاقي والقانوني..

وفي ظل المجتمع الإقطاعي الذي ارتكز على استغلال جماهير الفلاحين الاقنان ، كانت العدالة تعكس مصالح الملاك الإقطاعيين ، وكانت تهدف فلسفات ذلك العصر في أوربا ، وهي فلسفات وأفكار ذات طابع ديني ، إلى تدعيم الاضطهاد الإقطاعي ، وكانت كل معارضة لهـذا النظام تعتبر إلحاداً0

أما العدالة الاشتراكية ، نتيجة لأنها انعكاس لعلاقات اجتماعيـة لا تسـمح باسـتغلال الإنسان للإنسان ، فإنها تدعم المبادئ الأخلاقية العليا ، وتحقق لأفراد المجتمع مساواةً حقيقيـةً لا شكلية في جميع الحقوق ، وتزيد من احترام العمل والإقبال عليه ، وتعمـق ، بـين أفـراد المجتمع، أواصر المحبة والاحترام المتبادل ..

أين هذا الإدراك العميق الذي يملكه أحمد راشد من ذلك الإدراك المتدني لـدي أحمـد عاكف ؟ أين هذه الثقافة الواعية بالأوضاع الاجتماعية، فهل يجدها عند أخوان الصـفا وابـن طفيل وكل كتبه الصفراء التي يتغني بها أو الشروحات المتيم بها ، ويظن نفسه عالما مثقفا لا مثيل له ؟!0

إن المفكر الاشتراكي لديه هم بالمجتمع والآخرين ، إن قضـيته تتمثـل فـي العدالـة الاجتماعية ، في الرقي الاجتماعي ، في توفير سبل الحياة الإنسانية للجميـع .. تلـك هـي همـوم المثقف الاشتراكي أمثال أحمد راشد والشئ الذي يجعله يضيق بكل شئ هو أن يجد أن الإنسان لا يهتم إلا بذاته ويترك كل ما حوله مكتفيا بالتفكير في ذاته فقط دون غيرها .. هنـا يشعر الاشتراكي بالكارثة الحقيقية ، عندما يصبح كل فرد مع ذاته ولذاته فقط دون تضامن مع الآخرين ..

إن الفكر الاشتراكي يهتم بالآخرين ، ويهتم بالعدالة الاجتماعية للجميـع ، ضـد كـل استغلال لفئة ما في المجتمع 0

وتنازعت عاكف عواطف متناقضة .. فقال بحدة : لو أن الفلاح يستحق أكثر مما هـو متاح له لناله ، والحق لمن يقدر عليه ، وماعدا ذلك فهراء في هراء !

وثبت الشاب نظارته على عينيه بحركة عصبية ، وقال بلهجة غريبة :

أأنت من أتباع نيتشه يا أستاذ ؟!

رباه ومن نيتشه هذا ؟ .. وخفض من شدته :

إنك يا أستاذ راشد تدفعني إلى أحاديث ليست بذي بال ! دع الفلاح إلى نفسه أو إلى مـا يعنيه أمره 0 ألم تقرأ شيئا عن أرسطو ؟ .. ألم تعلم بفلسفة أخوان الصـفا الدينية ؟ ألم تطلع على شتي المعارف الروحية ؟! (ص 82)

فظهرالإنزعاج على وجه الشاب وقال : إن مثلنا مثل ربان السفينة تمخر عباب مضيق ثائر تهب عليه ريح عاصفة ، فيفور زخاره ويصطخب ركامه ، فتعلو السفينة وتسفل وتميـل ذات اليمين وذات الشمال ، مضطربة البنيان ، مزلزلة الأركان ، فهل يجوز للربان – وتلـك حال السـفينة – إن يولي آله القيادة ظـهره ليرمي بطرفه إلى الأفق متأملا ومنشداً ؟!0

نحن نجتاز الآن مضيق الموت تكتنفنا الآلام من كل جانب 0 فلنأخذ من الآلام ذخيـرة لتأملاتنا 0 حقا أن للأبراج العاجية لذاتها ، لكن ينبغي أن نقاوم أنانيتنا إلى حين0 (ص 83)

ويظل المفكر الاشتراكي يسبب الضيق والامتعاض والغيظ لأحمد عاكف .. لقد سـفه راشد فكره وثقافته واعترف عاكف بينه وبين نفسه بعجزه عن فهم فكر راشد وثقافته العاليـة والمبهرة أيضا .. لقد جرده الاشتراكي من عقله فهل يجرده من قلبه .. رباه .. ماذا يفعـل ذلك الرجل ومتي أتخلص منه انه الكابوس الذي أوجده أمامي خان الخليلي .. وعندما علـم بأنه يعطي الفتاه التي يتشوق إليها في النافذة درسا خصوصيا شعر بالغيظ والضيق .. وكـأن حاله يقول : ألا يكفيك أنك أطحت بعقلي فهل تطيح بقلبي أيضا ؟ سأله : هل تعطيها دروسـا خصوصية ؟ فحني الشاب رأسه بالإيجاب ! وامتعض الآخر امتعاضا شـديدا جعلـه يتكلـف الابتسام حتى لا يبدو على وجهه أثراً من إحساسه 0 أيجلس هذا (الأعور) من فتاته مجلـس الأستاذ ؟ أيلقنها الدرس ويأمرها بحفظه وربما تصنّع الجد فانتهرها ؟ ألم ينفرد بها أحيانا ؟ ألم ينـظر إليها مرة بعين غير عين الأستاذ ؟ كيـف تراه هي ؟

إنه شاب مثقف ذو مستقبل حسن ، ولن يضره شكله المتجهم ولاعينه الزجاجيـة (ص 93) أحمد عاكف لديه أدراك لحقيقة الأمر ، إن أحمد راشد بكل المقاييس أفضل منـه حـالاً رغم كل العيوب التي يركز عليها هو .. بمعني آخر يدرك تماما أن كل تلك العيوب تُغتفـر إذا قورنت بالجوانب الإيجابية الكثيرة التي يتمتع بها أحمد راشد0

ويعود أحمد عاكف ليعترف بأخطائه وسوء ظنه بالشاب .. فعندما تلاقت العيون أقصد (نوال) ، (أحمد عاكف) من خلال النافذة .. عدل موقفه من أحمد راشد :

تلاقت العيون حتى تآلفت وتعارفت ، وتجاذبت الأرواح دون أن يعوق تجاذبها الصمت أو الحياء ، وبات يظن – لما يطالع في نظرتها من العطف والصفاء – إنه ظلم الأستاذ أحمـد راشـد في أفكاره وعواطفه ، وأن الشاب – المشغول بالاشتراكية ومحو العقائد الباليـة – لا يفرغ للغزل والحب .. (ص 95)

الاشتراكي يثور لامتهان القيم بالمال :

ما يزعج المفكر الاشتراكي هو أن يجد القيم والمثل وكل شئ جميل يمـتهن ويسـتعبد تحت سطوة المال .. فما أقسي أن تباع كل الأشياء بالمال .. فيصـبح المال هـو الحـاكم الأول في كل شئ وأي شئ0

في ليلة القدر من شهر رمضان – وقبيل الفجر أُطلقـت صـفارات الإنـذار فارتـدوا معاطفهم وهرعوا إلى المخبأ .. ورأي في المخبأ أحمد راشد وسيد عارف واقفين يتحـدثان فانضم إليهما .. وما أن رآه المحامي حتى قال له :

أما سمعت ما يقول سيد أفندي ؟ يقول أن خطوبة سليمان عته لكريمة العطار تمت اليوم ، فقال سيد عارف مبتسما : نعم يا سيدي .. فرح (ميمون)..

وعاد أحمد راشد يـقول بحده : أنظر إلى المال كيف يستذل الحسن ! إن أقبح ما فـي عالمنا هو خشوع الفضائل والقيم السامية للضرورات الحيوانية ، فكيف سمحت الحسناء لنفسها بقبول يد هذا القرد الدميم ؟! ولن يكون إجتماعهما زواجا ولكنه جريمة مزدوجة تعد من ناحية سرقة ومن الأخري إغتصابا ، ولا يزال جمالها فاضحا لقبحه ، وقبحه فاضحا لجشعها ..

ابتسم راشد ابتسامة خفيفة واستدرك قائلا لا يمكن أن تُقترف هذه الجريمـة فـي ظـل الاشتراكية (ص 98) 0

يمكن لنا ملاحظة أن نجيب محفوظ يعرض صورة المفكر الاشتراكي بشـكل يعتريـه التشويه وفي نفس الوقت يعرضه بطريقة تجعل الغالبية العظمي من المجتمع لا تقبله والـدليل على ذلك أنه يعرضه مشوها .. فأحمد راشد (أعور) بعين زجاجية ، ربما يريـد نجيـب محفوظ أن يقول أن الاشتراكي يري الأشياء بعين واحده .. وهذا العيب جعل عاكف يشـعر بالاستعلاء والأفضلية على راشد 00

الاشتراكي أيضا لا يريد أن يكون حديثه للعامة أو الغوغائيين موافقا فـي ذلـك أحمـد عاكف ، رغم أن المطلوب في المفكر الاشتراكي أن يصل فكره إلى الجميع ، وعلـي كافـة المستويات ، وأن تكون لديه القدرة على إقناع تلك الجماهير الغوغائية0 وهذا أمر افتقده أحمد راشد فظلت أفكاره حبيسة ذاته ولا تخرج إلا إذا صادفت أحد الأشخاص ممن يمتلكون قـدراً من الثقافة0

أيضا .. أحمد راشد 0 ناقد ساخر .. أو هو يمثل النقد المصحوب بالسخرية .. فهـو ينتقد الدين ويسخر منه في حين أن النواحي الدينية لها فعل وأثر كبير في نفسية الجماهير ولا يمكن أن نواجهها بتلك السخرية ، وإذا حدث ذلك فإن الأمر ينقلب عليه وبالتالي يفشـل فـي التأثير0 ثم أنه ليس ميزة ولا براعة ولا إبداع أن ننتقد كل القديم أو نرفـض كل القديم وكـل الايمانيات بدعوي الاشتراكية والتجديد0

أيضا .. يعرض نجيب محفوظ للاشتراكي بصورة مشوهة في إحساسـه ومشـاعره ، فهو لا يهتم بالجانب العاطفي أو بالمرأة ولم تأت لحظة واحده تشير إلى اهتمامـه بـالمرأة .. صورة أخري مشوهة لاحمد راشد يعرضها نجيب محفوظ، حيث يدور الحديث فـي مقهـي الزهرة حول الغناء والموسيقي ونكتشف من خلال الحوار ابتعاد أحمد راشد عن هذا الجانـب فهو يجهل الغناء والموسيقي ، وفي اعتقادي أن الغناء والفن جزء أساسي من مكونات المثقف الواعي .. بل أن الغناء والموسيقي والفن تعبير حقيقي عن الانطـلاق الفكـري والتكـوين الفكري للفرد .. ولكن ظهر هذا الجانب عند نجيب محفوظ بصورة سلبية ، حيث قال كمـال خليل : الأستاذ أحمد راشد يعجب بالغناء الحديث بل وأشاد بالموسيقي الإفرنجية ! والظاهر أن

الشاب المحامي (راشد) كان راغبا عن الجدل فقال بغير اكتراث : رأيي في الغناء رأي غير خبير ، والحق أني قليل الاهتمام بالغناء ! (ص 144)

إذن الصورة المعروضة عن الاشتراكي عند نجيب محفوظ صورة مشوهة ، بل أقـول أنها صورة مكروهة ، فكل من يقف عند شخصية أحمد راشد ربما يعجب بالثقافة العالية التي يمتلكها إلى جانب قدرته الفائقة على النقد ، ولكنه في نفس الوقت ما يلبث أن يشعر بدرجة أو بأخرى بالنفور منه 0 لأنه يصدم الإحساس الداخلي ، وهو الجانب الديني والعقائدي 0 أنا أفهم أن أنقد ما هو سلبي في الدين والعادات والتقاليد ولكن النقد والرفض للـدين بشـكل إجمـالي وكامل فهذا أمر مرفوض ، وغير مقبول 0 وأنا أزعم أنه لا تعارض أبداً بين أن أفكر بشـكل اشتراكي وأن اعتقد في النواحي الدينية بشكل عقلاني ومعتدل0

ونلاحظ أيضا ان أحمد راشد لا يجد صدي لذاته إلا مع أحمد عـاكف ، بينمـا يصِـر عاكف على (العكوف) على ذاته وعلي كل تراث الماضي ، كذلك فإن أحمد راشـد غيـر مؤثر في المحيطين به الذين يعيش وسطهم اللهم إلا في جزء ضئيل وهو التدريس والتثقيـف لنوال وأخيها0

ويعلق د0 عبد المحسن طه بدر على شخصية أحمد راشد قائلا : لقد اهتم المؤلف بعض الاهتمام بأحمد راشد المحامي ،لأنه يمثل أداة القهر لأحمد عاكف ، خاصة في مجال الثقافـة التي ظن أحمد عاكف أنها ستضمن له تفوقا كاملا 0 ولكن المؤلف يـخلق له – أي لعاكف – فـي (كل خرابة عفريتا) فأحمد راشد محام وقد عجز أحمد عاكف عـن الحصـول علـى ليسانس الحقوق 0

والثنائية بين عاكف وراشد واضحة حتى من الاسم وقد كشف المؤلف من خلال ذلـك عن كراهيته للفلسفة المادية الماركسية ، فجعل راشد أعوراً يلبس دائـماً نظارة سوداء ليغطي عينه الزجاجية ، ثقيل الدم ، يكره كل قديم ومشايع للحديث دائما ، فشل في اجتذاب نوال رغم أنه كان يعطيها دروسا خصوصية ، وجوده نادر في حياة خان الخليلي والمقهي ، لا يتحـدث إلا إذا انفرد بأحمد عاكف ليفاجئه بأسئلة وأسماء لم يسمع بها أحمد عاكف الذي يتطرف دائما في التمسك بالقديم والتعصب له ، لأنه المجال الوحيد الذي يعرفه[3].

♦

ثانيا :

علي طه في القاهرة الجديدة :

الاشتراكي ثورة فكرية بلا فاعلية :

علي الرغم من أن (شخصية الثوري) في قصص نجيب محفوظ يغلفها ضباب كثيـف ، حيث تغرق هذه الشخصية في دوامات من الانسحاب أو التقوقع أو النكوص أو التذبذب0 فإن الأدب العربي لم يعرف البطل الثوري إلا على يد نجيب محفوظ ومثالنا هنا هو " على طـه " في القاهرة الجديدة 0

يبين نجيب محـفوظ ملامـح هذه الثورية في " على طه " الذي أختار طريق النضال الثوري ، رافضا بإصرار الحياة الناعمة في ظل مجتمع بائس ، إن على طه نمـوذج لتطابق الفكر والتطبيق في الحياة ، نموذج للثوري الناضج الواعي وهو ثوري ذو أيديولوجية علميـة .. وهو نموذج أيضا للثوري النقي النظيف0

إلا أن الثوري عند نجيب محفوظ يمثل كما قلنا ، التذبـذب والتقوقـع والوقـوف فـي منتصف الطريق 0ينتظر من يرشده إلى طريق الثورية وقد يكون الطريـق خاطئـا ولكنـه سرعان ما يندفع فيه0 أن هذا " الثوري" يمثل موقفا يخلو من ثورية حقيقية إذ يظل متسـكعا في طرقات الأفكار ، ولا يعرف مستقرا وسرعان ما تنتهي ثوريته إلـى التخـبط النفسـي ، والانصياع إلى أفكار تتناقض بين النزعة الدينية المتطرفة ، والفلسفة الماديـة0 ثـم الحيـرة النفـسية والرفض لمجرد الرفض لكل نظام ممكن[4] ويعبر نجيب محفوظ عن تلك الوضـعية الفكرية التائهة لشخصية الثوري الذي نهضت أخلاقه فيما مضي على دعامة من الدين، فعلام تنهض اليوم؟ ما الذي يمسك على الفضائل قيمتها بعد الله ؟ أم تـراه يزدريهـا كمـا ازدري عقيدته من قبل ، ثم يلقي بنفسه في تيار الحياة الجارف بلا وازع ولا ضمير ؟ هكـذا تـردد 000 ووجـد نفسه في حيرة مثل تلك التي وجدت فيها " إحسان شحاتة " نفسها عقب تحررها من والديها000 لكن "علي طه " شـغف بالإصـلاح الاجتماعي وحلـم بالجنـة الأرضـية ، فدرس المذاهب الاجـتماعية ، حتى طاب له أن يدعو نفسه اشتراكيا وانتهي المطاف بانتقاله روحـيا من مكة إلى موسكو) .. (ص22: 23)

وهكذا يري نجـيب بطله الثـوري تائه القصد ، ضائع السبيل لا تخلـو حياتـه مـن دومات عنيفة فهو مهتز وسلبي حيث " تسقط عنه صفة القيادة والبطولة وينتظر من غيـره أن يقوده إلى النشاط الثوري المنظم عندما يشكل حزب ثوري"[5]0

يقول نجيب أن " على طه " لم يكن ذا هدف واضح ، بل اختلطت عليه الوسائل0 لقـد كان مهيأ للاشتغال بالسياسة ، ولكن السياسة كما يعرفها هو لا كما يعرفها الناس0 ولو وجـد حزبا ذا مبادئ اجتماعية لاشترك فيه بلا تردد ، ولكن أين هذا الحزب ؟ .. فهل ينتظر حتى تنشا الأحزاب الاجتماعية ثم يشـترك فيها ، أم يأخـذ هو في الدعوة إليها منذ الآن ؟ لاشك أن الأنتظار أسهل ، وأحكم ، إذ ما جدوي الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي في بلد لا يشـغله شاغل عن الدستور والمعاهده0 ولعله من الخير أن ينتظر قليلا ليستكمل عدتـه مـن العلـم والمعرفة0 (ص 76).

الاشتراكي متناقضا :

يعرض لنا نجيب محفوظ شخصية المفكـر الثـوري الاشـتراكي كشخصـية مليئـة بالتناقضات التي يصعب أن نجمع ونوفق بينها لا على المستوي الفكري والعقلـي ولا علـى المستوي الحياتي واليومي .. هكذا كان "علي طه " في القاهرة الجديدة .. قـال علـى طـه مخاطبا مأمون رضوان : نحن متفقان على ضرورة المبادئ للإنسان ، للنجاح في الحياة0 أنها البوصلة التي تهتدي بها السفينة وسط المحيط 0 سأله أحمد بدير : ماذا يحتاج جيلنا من مبادئ ؟ فقال بحماس : الإيمان بالعلم بدل الغيب ، والمجتمع بدل الجنة ، والاشتراكية بدل المنافسة0 (ص9)

لبث على طه في حجرته حتى مالت الشمس إلى المغيب .. كان مرتـديا ملابسـه إلا طربوشه .. متأنقا كعادته يحسب الناظر إلى منكبيه العريضين أنه من هواة الرياضة البدنية ، وكان فتي جميلا ذا عينين خضراوين وشعر ضارب لصفرة ذهبية ودلالـه واضـحة علـى النبل0(ص15) وفي مقابلتة لاحسان شحاته .. أدار وجهها اليه وألصق شفتيه بشفتيها حتـى رطبتا برضابها0 ثم رفع وجهه متنهدا من الأعماق وتتابع خطوهما صامتين ، ورأتـه يلقـي

عليها نظرات فاحصة ، فذكرت على سحر الموقف وفتنته – معطفها الذي كاد يبلـي ، ففتـر سرورها ، وقالت بالرغم عنها : أيسؤوك أن تري دائما هذا الموظف العتيق ؟ فلاح الأنكـار في وجه الشاب وقال مؤنبا : كيف تلقين بالا إلى هذه الصغائر، إن في المعطف كنـزا جعلـه الحظ السعيد مـن نصيبي ! (ص16) ولم توافقه على أن المعطف من الصغائر بـل كانـت تقول لنفسها مرات متأسفه : إن العيش السعيد شباب وثياب ! ولحظت بدلته الصوفية الأنيقـة فرغبت في لومه ، وقالت: يالك من مراء! أتعد اللباس من الصغائر وأنت تتـأنق مزهـوا .. فتورد وجهه حياء ، وبدا كالطفل المرتبك ، ثم قال كالمعتذر : البدلة جديدة .. ولـيس مـن الممكن ابتياع بدلة قديمة0 ولكن الملابس أعراض تافهة .. أليس كذلك ياحبيبتي ؟ (ص17)

والواقع أنه لم يكن يخلو من تناقض ، كان كثيرا مايستهين بالملابس والمآكـل ونظـام الطبقات ، ولكنه كان يلبس فيتأنق 0 ويأكل لذيذ الطعام حتى يشبع ، وينفق عن سـعة .. (ص17) ويكمل نجيب محفوظ عرضه لتناقضات بطله الثوري الاشتراكي " على طه " .. كان يهيم بالمثل العليا ويتحدث بحماس وإيمان عن المدينة الفاضلة ، فصدقه عارفوه ، ولكن بعض المغرمين بالنقد أشاعوا عنه أنه داهية لا يشق له غبار ، وأنه يغزو الأوسـاط جميعـا ملثمـا بالفضيلة ، وأنه يتحدث عن الأخلاق كما تتحدث الخاطـبة عن عروس لم ترهـا ، ولكـنهم غالوا وكذبوا ، والحقيقة أن الشاب كان صادقا ومخلصا ، وأنه إذا كان يحب الجمال فقد أحبه بنزاهة وإخلاص00 (ص21-22)

كان شجاعا صادقا ، فاستقبل الحياة الجديدة بإرادة متوثبة وعقل شغوف بالحق ، لم يكن من الهازئين الماجنين ، ولم يكتم إعجابه "بمأمون رضوان " لصدقه وشجاعته ، ولكنه ارتمـي بين أحضان الفلسفة المادية ، هيكل واستولد وماخ ، وآمن بالتفسير المادي للحيـاة ، وارتـاح أيما ارتياح للقول بأن الموجود مادة وأن الحياة والـروح تفـاعلات ماديـة معقـدة وشـغف بالإصلاح الاجتماعي وحلم بالجنة الأرضية 0 فدرس المذاهب الاجتماعية، حتى طاب لـه أن يدعو نفسه اشتراكيا ! وأنتهي المطاف بروحـه – التي بدأت رحـلتها من مكه إلى موسـكو .. وحق له أن يقول عن نفسه مسرورا هاكم بطاقتي الشـخصية وهي تغني عن كل تعريف : غير فقير واشتراكي 0 ملحد وشريف 0 عاشق عذري ! .. (ص32-33)

إن صورة الاشتراكي لا تتجاوز أبداً خط النقد والتحليل والتشديد على المثل والمبادئ 0 لم تصل أبداً إلى نقطة الفعل والتغيير ، فعلي طول الرواية نجد " على طه " عاجـزاً عـن الفعل ولكـنه قادر على القول .. ثورة قول لا ثورة فعل .. تفسير للواقع لا تغييـرا لـه0 الانتظار والتمهل يسودان فكره وفعله .. فعندما كان في المكتبة، موظفا بها ، قال : هذه فترة انتظار وتفكير ريثما أجد سبيلا للاشتغال بالحياة العامة .. وربما اخترت الصحافة في الوقت المناسب ..

ثم يقول .. أني أتهيأ لكتابة موضـوع عن توزيع الثروة في مصـر (ص80) وفـي موقفه من " محجـوب عبد الدايم " الانتهازي نجده – على طه – يلقـي بالائمـة علـى المجتمع ويجد التبرير لمحجوب .. هذا هو المفكر الاشتراكي لا يجيد إلا لعبة الكـلام .. لا لعبة الفعل .. يقول .. كم من المؤمنين من أوغاد .. فليست الحقيقة ما نري .. وصـاحبنا البائس وحش وفريسة معا ، فلا تنس نصيب المجتمع من جريرته ، هنالك مئات من المؤمنين يشقي الملايين لاسعادهم ، فليست جريمتهم دون جـريمة صاحبنا التعس ، فـالمجتمع الـذي تعيش فيه يغري بالجريمة ، بيد أنه يحمي طائفة المجرمين الأقوياء وينهال علـى الضـعفاء0 (ص 208)

♦

ثالثا :

" منصور باهي " في ميرامار :

خلفية تاريخية :

نود أن نعرض بشئ من التفصيل كيــف اضـطرب الوضـع بـين عبـد الناصـر والشـيوعيون منذ عام 1958 وحتي الإفراج عنهم .. يقول أنور عبد الملك : ثلاث أحـداث ميزت عام 1958 ، أندمجت المنظمات الشيوعية الثلاث وأسست الحزب الشيوعي المصـري بعد شهر تقريبا من إعلان الوحدة السورية المصرية ، ولم يْخفَ الأمر علـى العسـكريين (يقصد الحكام)0 أن ما كان يثير مجرد السخط قد أصـبح أو يسـتطيع أن يصـبح خطـرا0 والحدث الكبير الثاني الذي سيعجل في الأزمة هو مؤتمر الشعوب الإفريقية والآسيوية الـذي انعقد في القاهرة في الفترة من 26 ديسمبر 1957 وحتي أول يناير 1958 ، وقد نظم اليسـار بهذه المناسبة في الصحافة والأذاعة والجامعات والنقابات مظاهرة ضخمة ضد الاسـتعمار ، مشددا على دور الحريات العامة ، والعمل الشعبي 0 وأفلت الأمر من أيدي الرجال الرسميين ، وهم مرتبطون بالسياسة التي تعتمد مبادئ باندونج أساسا لها ، واضطروا إلى القبول بالأمر ..

وكانت ثورة 14 تموز 1958 العراقية هي ثالث الأحداث الحاسمة ، فقد شهدت الأسابيع الأولى ازدهاراً مدهشا للديمقراطية في العراق ، حيث كان الحزب الشيوعي أقوي الأحزاب .. وترك اللواء عبد الكريم قاسم لهذه المنظمات مجال العمل واسعا .. وشجع الفكرة القائلة بـأن العراق الجديد هو الطريق الديمقراطي والتحرري للأمة العربية ، وأنه البديل عـن الطريـق

الدكتاتوري الذي يمثله عبد الناصر 0 الخطر أصبح هذه المرة يداهم وجود الجمهورية العربية المتحدة ذاتها ، حيث رأي اليسار والوطنيين التقدميين بروز حل ديمقراطي في الأفق ، بفضل التجربة العراقية ، حل يمكنه إنهاء الحلم المرعب الذي يفرض ضرورة صلب الحريات كثمن للوحدة0

ويقول م0 ن 0 عجواني : لقد اتجه الشيوعيون المصريون والسوريون بأفكارهم تجـاه الثورة العراقية (14 يوليو 1958) حيث لعب الشيوعيون العراقيون دورا هامـا .. الأمـر الذي أقلق عبد الناصر كثيرا ، ذلك أن بروز الثورة العراقية قد جعل منها نقطة جذب لأنظار الشيوعيون العرب جميعا .. مما جعلها منافساً خطراً للتيار الناصري العارم0

ويقول أحـمد حمـروش أن العـلاقة بدأت فـي الاهتزاز بين عبد الناصر واليسار .. وتوالت خطب جمال عبد الناصر تتهم الشيوعيين بالعمالة .. وفي يـوم 31 ديسـمبر 1958 وصل " يوجين بلاك " يحمل عرضا بقرض من البنك الدولي ، وفي الليلة التالية ، ليلـة رأس السنة هاجم البوليس منازل مئات الشيوعيين الذين تم ترحيلهم إلى المعتقلات0

ويقول محمود أمين العالم عن مقابلة تمت بينه وبين أنور السادات (تمت المقابلة عـن طريق د0 يوسف أدريس) بين ممثلا للمكتب السياسي للحزب وبين أنور السادات في منزلـه بالهرم في أكتوبر1958، اسـتمرت المقابلة من العاشـرة مساء حتى الرابعة صباحا ، وكانت جادة وجافة دعا فيها أنور السادات إلى حل الحزب ودخول الاتحاد القومي كأفراد وقلت له أننا على استعداد للتعاون بشكل تنظيمي داخل الاتحاد القومي محتفظين بمنبرنا المستقل ، تباينـت ردود الفعل على نتائج المقابلة ، وبعدها بيومين تم اعتقال عدد محدود فطلبت مقابلة السـادات ولكن لم يقابلني0

ما سبق هو مجرد خلفية تاريخية استرشادية لفهم رواية ميرامـار لنجيـب محفـوظ .. وفهم شخصية " منصور باهي " اليساري التائه المحبط .. وموقف أخيه الأكبر ضابط الأمن0

رجال الثورة ضد اليسار :

ـ ستذهب معي إلى الإسكندرية ولو اضطررت إلى أخذك بالقوة .

ـ عاملني كرجل من فضلك ..

ـ أنك ساذج ، أتظننا غافلين ، لسنا غافلين 0 وتفرس في وجهي بقوة ثم قال :إنك غِر جاهل ، ماذا تحسبهم ؟ أبطال .. هه ؟ أني أعرفهم خيرا منك ، وستذهب معي طوعا ، أو كَرْهـا0 (ص154)

منصور باهي .. أثار الشك عند الزملاء فاعتبره البعض جاسوسا واعتبر نفسه خائنـاً .. أنه يكره نفسه ويعاني الاحباط والشعور بالذنب لاسيما أن الرفاق الآن في المعتقل وخاصة أستاذه " د0 فوزي " زوج " درية " التي أحبها قبل أن تتزوج من الدكتور فوزي0 ولقد أعـاد علاقته بها بينما كان زوجها في المعتقل .. مما زاد أحساسه بالخيانة والذنب0

أنني في رأي أصحابي جاسوس ، وفي رأي نفسي خائن ، ولا ملجأ لي إلا أنت ..

- إنني دواء !

- لا يبقي غيره إلا الموت أو الجنون ، نفخت في توتر ثم تمتمت : أني خائنه من قديم الزمان 0

– بل كنت مثال الإخلاص الزائف ..

– تعريف آخر للخيانة التي مزقتني 00(ص169)

ويتناول الناقد " إبراهيم فتحـي " شخصية منصور باهي بالتحليل فيقول : تتفق الملامح النفسية لمنصور باهي مع خصائصه النموذجية كما نستخلصها من الرواية ، فهو منطـو على نفسه ، يفكر دائما فيما هو كائن وما ينبغي أن يكون ويصطدم رأسه دائما بصـورته المثاليـة التي يكونها عن نفسه وعن العالم 0 وينجم تردده عن شدة استغراقه في ملاحظة ظُلُمات نفسه وتفكيره التأملي الكسيح ومن ثم كان لابد أن يسقط في المسافة الهائلة بين مشاعره النبيلة وبين ما تستطيع إرادته الحائرة أن تحقق 0 ولا سبيل أمامه إلا الثرثرة بكلمات عالية الـرنين عـن القيم السامية كتغطية للعجز عن حـمل المسئولية الفعلية في الكفاح لتغيير الواقع .. انه كائن تقوده إلى الهاوية فضائله الرقيقة المنطوية على ذاتها ، كعجلة تدور حول نفسها ، ولا تـؤدي به عواطفه المرهفة المستقرة حول جلده إلا الوجه الآخر للضعة والتدهور ، فهو يمارس نوعا أنيقا رومانسـيا من العجز عن الرؤية والفعل والاتصال بالآخرين0 (ص7)

- تساءلت في طريق عودتي إلى الإسكندرية : هل استحق نعمة الحياة ؟ أني ابحث عن حـل لمتناقضـات شتي ، حل عسير فيما يبدو , فلم لا يكون الموت هو الحل الأخير ؟ (ص172)

- " درية " هل داخلك الشك في كالآخرين ؟

فقالت بضجر : الحق انه ليس لك طبيعة الخونة !

- وما طبـيعة الخونة ؟ اني ضعيف ، إذعاني لاخي ضعف لاشك فيـه ، وأنـي أرشـح الضعفاء للخيانة 000 تناولت يدي بين يديها وقالت برجاء : لا تعذب نفسك .. لا تعـذبنا .. وقلت لنفسي أنها لا تدري إنها أداة من أدوات التعذيب ! (ص175)

أصبح لتحدي الزوجة دلالة سياسية بعد أن غيب السجن دكتور الاقتصاد ، فما أجمل أن يتوهم التلميذ المرتد انه يشترك مع أستاذه في احتضان نفـس المبادئ ونفس المرأة : أنت تتخلين عنه لا عن مبادئه 0 هل نتدهور معا كالبورجوازيين ؟ لا 000 ستصـهرنا التجربـة وتخرج منها كالمعدن النقي اشد صلابة وتألقا فلا يجوز أن نذعن لرواسب غير صحيحة 000 اتركي زوجك فالحياة لا تجود بنفسها إلا للأكفاء مثلي 0 ويواصل " منصور باهي " تحويـل مبادئه القديمة إلى رطانة تبرر كل وضاعة ، وينتصر في معركة ضد خصم غائب لا تـدفئ مبادئه الفراش ولا تشعل الموقد وهو خصم ينأي الزيف عن طبيعته فبمجرد أن تنفذ الشائعات إليه يمنح زوجته حريتها فقد عاقه حمل مسئولية الكون فوق كتفيه أن يحسـن اختيار الزوجة فيما سبق من الزمان 0 ولكن منْحِه الزوجة حرية التصرف موقف لا بطولة فيه ، فالفضـيحة تحاصره من ناحية ، خشية (المذكورة) على نفسها الفتنة ، وإعسار الزوج أمام عدالة القضاء ترغمه على الانفصال إرغاما من ناحية أخري 0 وهكذا يبتعد عن المسرح مهزوما ، ممـزق الروابط بألذ الأشياء التصاقا بقلبه ، لا تؤنس منفاه إلا صورة عـن الحقيقـة لا علاقـة لهـا بالحقيقة، فلا مكان له على الأرض 0 وفاجعته تثير إشفاقا يتضمن السخرية التي لا يفلت منها زوج مخدوع 000

الاشـتراكي المرتد والإحساس بالذنب :

منصور باهي المفكر الاشتراكي المرتد يدخل إلى دوامة الاضطراب والندم والقلـق .. إن حزمة المتناقضات التي في داخله لم يجد له حلا .. الحيرة هي سيدة الموقـف .. وهـل يكون الموت هو النهاية لكل هذا العذاب الذي يعانيه ، يسأل ويتعذب ويدخل في سلسـلة مـن الخيانات التي لا تنتهي .. ولذلك يود أن يعد برنامج عن الخيانة في مصر .. انه الارتـداد والخيانة الذاتية التي يود أن يعترف بها .. أو يتخلص منها .. كيف ومتي يتاح له ذلك وقـد رأي أن الحضيض قد يكون هو الهدف المنشود !!! نراه عندما يجلس في مقهي ما يلبـث أن يتخيل " د0 فوزي " زوج حبيبته " درية " وأحد أعضاء التنظيم المقبوض علـيهم .. وعلـي الفور جري تخيل حديث يجري بينهما ..

جلسْتُ لاحتسي فنجالا من القهوة .. وفجأة دق قلبي عندما مر أمـامي ذاك الرجـل 0 فوزي ! كلا ، ليس بفوزي .. ولكن ما أعظم التماثل بينهما ودرية حضرت بالتـداعي كمـا يقال .. أهلا ، أهلا 0

- لم نرك منذ عامين 000 أعني انك هجرتنا تماما .. قد يكون من الحكمة ألا يستمر الإنسان في عمل لا يناسبه 0 اجتاحني كبرياء أعمي فقلت : وقد لا يستمر في العمل أيضا إذا كـف عن الإيمان به 0
- قيل أن أخاك .. قاطعته بأستياء : لست قاصراً
- ألم تعد تهتم بشئ ؟
- فضحكت وقلت : ما دمت أحيا فلابد أن اهتم بشئ
- هل شاهدت فيلم مترو الجديد ؟

ابتسم ثم قال : فكرة .. فلنشاهد فيلما رأسماليا ! (ص 145)

في مكتبي لحق بي زميلي وهو يقول : قُبِض على أصحابك أمس

غشيتني لحظة غيبوبة ، حاولت أن اعلق لكنه عاجلني وقال : والسبب فيما يقال 000 قاطعتة بحدة : لا أهمية لذلك

وما لبث منصور باهي .. بعد الاعتقال الذي حل بزملائه أن ذهب إلى زوجة د0 فـوزي .. وحبيبته أيضا ..

- ألم تفكري في الكتابة إلى ؟

ترددت قليلا ثم أجابت : كلا

- ولكن احتمال حضوري لاشك خطر ببالك

- أنا أُحبكِ ، وأنت تحبيني ، دعيني اكلمه

- انك مجنون !

0000000000000000

ولَحظَتْ وجومِي فتساءلت : مالك ؟

- لا أكاد أتحرر من الإحساس بالذنب

ووجدت رغبة طاغية تدفعني إلى الحضيض كأنما الحضيض غاية منشودة تُطلب لذاتها ، أو كأنما الجحيم أمسي هدف الإنسان النهم إلى السعادة0(ص70)

هل أستحق نعمة الحياة ؟ إني أبحث عن حل لمتناقضات شتي ، حل عسير فيما يبـدو ، فلم لا يكون الموت هو الحل الأخير ؟ (ص172)

♦

رابعا :

حلمي حمادة في الكرنك :

خلفيـة تاريخية :

في معرض الحديث عن الثورة وموقفها من الفكر الشيوعي يـذكر الـدكتور " رفعـت السعيد " الانحراف الغريب والعجيب للثورة ومحاولاتها النيل من كل المعارضين .. يقول .. يأتي الأول من يناير 1959 ليجد السلطة وقد تفرغت لمحاولة يائسة للاجهاز على الشيوعيين ، والاعلام الحكومي وقد سود كل صفحاته، وكرس كل ممتلكاته في معركة ضدهم ، وليجـد الشيوعيين وهم جميعا ما بين مقبوض عليه أو هارب 0

الآن نسي الحليف .. حليفه .. نسي كل ما كان ، واستعادت الغابة الشرسة كل عنفوانها ، لتدور طاحونة عداء غريب ومريب للشيوعية ، ولتدور معها وبها طاحونه تعذيب وحشي لم تشهد له السجون المصرية مثيلا .. لامن قبل ولامن بعد0

حلمي حمادة .. اشتراكي مؤمن بمبادئة :

حلمي حمادة هو نموذج المفكر الاشتراكي المؤمن بمبادئه ويعمل على تفعليها .. انه المفكر النشط ، حيث يبذل كل ما يستطيع من أجل هدف وغاية يؤمن بها0 إنه المفكر الثوري الذي عرضه نجيب محفوظ في الكرنك00 وحول هذه الشخصية المؤمنة بفكرها يلتف الكثير من الناس يؤمنون بفكرها .. حلمي حمادة .. فتي رشيق ووسيم أيضا ذو مناقشات عصبية 0 وقد اعترفت لي " قرنفلة " بأنها هي التي بادأته بالغزل وأمام رفاقه أيضا 0 فتابعت مرة رأيا سياسيا يدلي به ثم هتفت له وهي جالسة على مقربة منه : ليحيي كل من تريد له الحياة وليمت كل من تريد له الموت !0 (ص 14)

هو مفكر حقيقي ، يؤمن بفكره حق الإيمان ، انه يتسم بالكثير من الصفات الجميلة والتي قد تقترب إلى حد المثالية :

وقالت لي بثقة لا حد لها : أنه نظيف بقدر ما هو ذكي ، ليس من النوع الذي يبيع نفسه .. (ص 16) ويقول صديقه عنه : لعلك لا تدري أنه شاب ذو كبرياء 0 وأن مِثْلَه يكون عرضه للشر أكثر من غيره 0 ويقول .. ولكنه على أي حال عاملها معاملة أمنية صادقة ، لم يستجب قط لإغراء استغلالها رغم تيسر ذلك له ، وهو لا يخلو من مثالية في سلوكه ، ومن ناحية أخري كانت أحواله المادية حسنة ، وحسبك أن تعلم أننا ندين في ثقافتنا العامة للكتب المعارة من مكتبته00 (ص51)

الاشتراكي .. يرفض العطف والشفقة :

من أهم السمات التي يتسم بها ذلك الاشتراكي (حلمي حمادة) أنه يرفضه مطلقا أن يكون موضع عطف أو شفقة أو إحسان أنه يريد التعامل الذي يتسم بالكرامة والعزة الإنسانية

.. ربما يكون ذلك إشارة إلى رفض أي سياسة لا تعطي الإنسان قيمته وإنسانيته الحقه .. أنه ضد كل نظام يضيع ذاتية وإنسانية الإنسان..

ولم يفْسِد الصفو في تلك الفترة إلا هبة عارضة من " حلمي حمادة " كادت تقوض أركان حبه الراسخ ، فقد توهم أن " قرنفلة " تعامله بعطف لا يليق بكرامته فرفض ذلك بإباء وقرر هجر المقهي لولا أن أمسك به أصحابه 0 وذهلت المرأة وراحت تعتذر إليه وهي لا تدري بالدقة ما ذنبها وراح يقول بعصبية :

- إنه لمقرف أن يضطر الإنسان إلى سماع نغمة واحدة ..

واستطرد بحدة : وأنا أكره الأصوات الباكية0

وبحدة أعنف : ثم إنني ضقت بكل شئ .. (ص37)

إن المفكر الحر ذو المبادئ .. المفكر المستنير الذي يحمل هموم وطنه على كتفيه كثيرا ما يثير الريب والشك .. وكثيرا ما يتهم .. ويقع في النهاية في هاوية الرداءة الاجتماعية وقتامة الرؤية السياسية وعفن السلطة الحاكمة ..

000 وقد قال لي " زين العابدين " مرة : لا يغرنك منظره .. فعلمت أنه يتحدث عن " حلمي حمادة " وسألته : ماذا نعرف عنه ؟

- إنه برمجي عصري أو قناع خداع0 (ص 26)

يعد حلمي حمادة في الكرنك أوعي النماذج السياسية في فهم وإدراك متناقضات النظام السياسي السائد ، فهذا النظام صرح هلامي من حيث أنه يعتمد على المؤسسة البوليسية والعسكرية ، الرعب والخوف وتكميم الأفواه .. التناقضات في كل شئ ، وكل شئ فاقد للرؤية العقلية ..

الاعتقالات والتعذيب :

كل شئ يسير بلا عقل وبلا رؤية ، كل المتناقضات تجتمع ، ولا شئ يفْهم وكل الأصوات صمتت ولم يبق إلا صوت واحد ..

وجئت يوما في ميعادي فوجدت مقاعد الشباب خالية .. وقالت لي "قرنفله": لـم يجـئ أحد منهم ، ماذا جري ؟ ويوما قال " طه الغريب " : سمعت عن أنباء اعتقـالات واسـعة 0 فوجمنا جميعا ، وقلت : ولكن أغلبيتهم تنتمي للثورة (ص19) .. الاعتقالات فعـل مخيـف حقا0 وما يقال عما يقع للمعتقلين أفظع ، لا تحقيق ولا دفاع ، لا يوجد قانون أصلا0(ص20)

وما ندري ذات أصيل إلا والوجوه الغائبة المفتقدة تهل علينا بفرحه مباغته .. أين كنتم يا جماعة ؟ فأجاب صوت : في نزهة0

وضجوا بالضحك 0 وعاد المرح ولكن الوجوه تغيرت ، فالرؤوس الحليقة للخارجين من السجن أضفت على أصحابها غرابة فضلا عن ذبول واضح في النظرة والحيوية (ص22) .. وتتواصل الاعتقالات ويعرف الجميع هول ما يحدث في المعتقلات والتعذيب والوحشـية التي تمارس مع المعتقلين .. ومن ثم يثار السـؤال .. لماذا كل هذا ؟! وهل الاعتقال والتعـذيب قادر فعلا على محو الأفكار والآراء ؟!

وللمرة الثانية أختفي الشبان 0 وقع المقدر فجأة وبلا سابق إنذار كما حدث فـي المـرة الأولى 0 ولم يقع أحد منا في حيرة التسـاؤل وعـذاب الشـك ولكـن اجتاحنـا الانزعـاج والذهول00وشككنا في كل شئ .. وعجبت لحال وطني 0 انه رغم انحرافه يتضخم ويتعاظم ويتعملق .. ولكن ما بال الإنسان فيه قد تضاءل وتهافت حتى صار في تفاهة بعوضه ، مـا باله يمضي بلا حقوق ولا كرامة ولاحماية ، ما باله ينهكه الجبن والنفاق والخواء00

وعندما يهان الإنسان في وطنه ، عندما يتدني فيه ويصبح أقل من صرصار .. قللـي ماذا يبقي له وماذا يحترم .. وماذا تكون النتيجة ؟ عندما يعامِلُ الحكـام الشـعوب معاملـة الكلاب فالنتيجة ستكون أسوأ مما يتصور إنسان .. ويومها يهان الجميع .. ويتساوي الحاكم والمحكوم في المهانة ويسجل نحيب المأساة :

ولدي إقبالي على المقهي ذات مساء لمحت وجه قرنفلة مشرقاً على غير عادته دهشـت حقا واجتاحني فيض من الأمل فاندفعت نحو الداخل 0 وسرعان ما وجدتني حيال الاصـدقاء المحبوبين ولكن الخسارة تبدت ملموسة أكثر من المرة الماضـية هزلوا كأنهم خارجون مـن مجاعة ، لاحت بأعينهم نظرة حزينة وساخرة، ورسب في زوايا أفواههم امتعاض راسخ ..

وقالت لي قرنفلة : الذي رجـع إلى حضـني خيال فأين إذن حلمي حمادة ؟ (ص35)

لعلك لا تدري أنه شاب شجاع ذو كبرياء 0 وإن مثله يكون عرضة للشر أكثر من غيره وتنهدت بعمق ثم استطردت :

منذ ملكت هذا المقهي وأنا دائبة على العناية به ، الأرض والجدران والأثاث تنال حظها كاملا من اهتمامي الكلي أما هم فينكلون بفلذات الأكباد ، عليهم اللعنة .. ثم قبضـتْ علـى ذراعي وقالت : لنبصق على الحضارة .. وترددت طويلا بين أنبهاري بالعظمة ومقتي للفزع والإرهاب ، ولم أدر كيف يمكن أن يتطهر من الحشرات ذاك البناء الشامخ0 (ص36)

قتلوا المفكرين فانهزمت الأوطان وضاعت الكرامة :

تتواصل الاعتقالات ويتواصل التعذيب .. ويفقد الجميع الثقة في كل شـئ .. ضـاع الأمل وخاب الرجاء ومات الوطن في القلب وفي العيون .. والنتيجة النهائية حصـاد مـر0 ويعبر " مجاهد عبد المنعم " عن تلك الحالة المحزنة بقوله :

ورأينا الرمان يغني في شجره .. كالثدي الممتلئ حليبا وحنينا00 فتدفقنا نحو الشجرات ، تدفقنا كالمطر .. كي نقطف ما نحن رعيناه سنينا00 وأحمرت أعيننا مما نحن تخلينا مـن ثمره .. من ياقوت هو جائزة صاغتها أيدينا .. ثم فتحناه نقضم حب الياقوت .. فوجدنا قلب الرمانة تابوت .. نحن وجدنا الحبات به في لون الكركم .. ذات نهار أرضـعنا مـن دمنـا الشجرات فأين الدم ؟ كيف تحول في بطن الرمان إلى حصوات صفرا ؟ ذات نهار أعطينـاه حلاوتنا والسحرا .. كيف يجازينا لا يحمل إلا المر ؟00 (10)

إنها مأساة الوطن عندما تهدر كرامته بأيدي حكامه وكـل اثمـه أنـه يحمـل الفكـر والإخلاص !!

وفي أوساط ربيع العام وقع الاختفاء الثالث !

لم يثير تلك المرة أي تساؤلات ولا عنفا في ردود الأفعال .. تبادلنا النظرات هززنـا رؤوسنا ، نطقنا بكلمات لا معني لها : كالعادة .. لا جدوي من التفكيـر (ص38) .. قالـت قرنفلة : هل حزن لأمور تقع بانتظام مثل الشروق والغروب ؟ وتلقي الوطن الضربة القاضية والتي هزت الجميع وأذهلتهم وتركتهم في إنزعاج ..

الحق أننا لم نشك في قوتنا تداعت كثير من القيم أمام أعيننا وتلوثت أيدي لاحصر لهـا ولكننا لم نشك في قوتنا 0 وإنه لتفكير لا يخلو من سذاجة ولكن عذرنا أننا كنا مسـحورين ، ومصرين على الأمل ، وبدا أنه فوق طاقتنا أن تكفر بأول تجربه وطنيه خالصة جـاءت فـي ختام سلسلة من عصور الذل والاستعباد (ص40) وعقب وقوع الهزيمة بأسابيع عاد الغـائبون أو بالأحري عاد إسماعيل الشيخ وزينب دياب وآخران .. ووقفـت قرنفلـة وراء الخـوان وتساءلت : أين حلمي ؟ أين هو .. ولم لم يحضر معكم ! ثم رفعت رأسـها وهـي تتمـتم : الرحمة .. الرحمة يا أرحم الراحمين ! عند ذاك قال إسماعيل الشيخ :قيل إنه مات في أثنـاء التحقيق0 وقالت زينب : هذا يعني أنه قتل 0 (ص42)

وأما جماعة الشيوخ فقد ارتدت مع الأيام إلى الماضي .. لم نصل إلى مثل هذه الحالـة في أي عهد من العهود 0 حسبنا ما كنا نستظل به من حماية القانون .. وحتي أعنـف أيـام الاستبداد لم تخل من صوت معارض حر .. وأيام الجهاد والنفي والفداء المجيدة كيف يمكـن أن تنسي ؟ ومالبثوا أن رجعوا إلى الوراء أكثر وأكثر حتى استقروا في عهد ابـن الخطـاب والرسول فتنافسوا في نبش الماضي يستخرجون أمجاده يتسلون بها عن حاضرهم 0 (ص43)

كانت الكارثة عظيمة وكان الثمن فادحا .. وكانت النتيجة أن تسرب الانتمـاء وكفـر الجميع بالمبادئ والقيم والشعارات .. موجه عاتيه من اللامبالاة وعدم الثقة في أي شئ ولأي شئ .. وقد عبر عن تلك الحالة .. " صلاح قنصوه": كان الإيقاع متسـارعا فـي التقلبـات المباغته في السياق الاجتماعي والاقتصادي والسياسي .. ولم يكن ذلك فـي معظمـه ثـورة شاملة بقدر ما كان نتيجة قرارات وممارسات اقتصادية تهبط بين الحين والآخـر مـن قمـة السلطة إلى القاعدة. وقد أدي ذلك إلى تشتت ملامح الصورة الوطنية وإعادة تجميعها بين وقت وآخر وفقا لقرارات سياسية وإجراءات اقتصادية تنتقل أحيانا إلى النقيض 0 وكـان لابـد أن تتفكك وحدة الانتماء ، أو على الأقل ، يتخلخل الشعور به لأنه لم يترك لحريـة الأختيـار أو تلقائيتة بين أعضاء الوطن مكانا ، وإنما فقط حرية الموافقة والتصفيق لقرار مـا ، إن كانـت هذه حرية 0 لقد كانت تجربة محدودة بلحظة صدور القرار التالي الذي ينقلب علـى القـرار السابق .. ومن ثم أصبح على المواطن أن يكيف مشاعره وحماسته وأفكاره بما يتفـق مـع تذبذب البندول الاقتصادي والسياسي في انتقاله المفاجئ من اتجاه إلى آخر 0 وقد أدي هذا إلى

أن يتخذ المواطن موقف المتفرج في ركن آمن مما راكم شعورا بالانفصـال عـن القضـايا الوطنية الكبري 0 بل أن السلطة وأجهزة إعلامها جعلت مـن مهامهـا تحديـد أو تضـييق مواصفات أو شروط الانتماء إلى الوطن بحسب قراراتها المتعارضة فيما يتصـل بالسياسـة الخارجية أو الداخلية على السواء 0 (فالاشتراكي الوحدوي) وفقا لمواصفات محددة هـو الوطني في زمن معين ، وكذلك (المصري صاحب السبعة آلاف سـنة حضـارة والمـرتبط بالعالم الحر) هو الوطني الوحيد في زمن آخر 0 وقد تحتاج القرارات أحيانا أسـم الـوطن التاريخي ليغزو مرة (جمهورية عربية متحدة) وإقليما جنوبيا ، أو يصبح مصر بشـرط أن تتوحد مع شخص الحاكم حيث يصبح انتقاد سياسته تهجما على مصر[11] 0

ونرجع إلى حلمي حمادة المفكر الاشتراكي الذي قُتِلَ في سـجون التعـذيب .. يقـول إسماعيل الشيخ احد أعوانه :

كانت التجربة قاسية جدا ، وبسببها كفر بجهاز من أجهزة الدولة هو المخـابرات أمـا إيمانه بالدولة نفسها ، بالثورة ، فلم يتطرق إليه الشك أو الفساد وتصور إنها – المخـابرات – تمارس أساليبها في خفاء عن المسئولين 0

فكرت عقب الإفراج عني في أن ارفع شكوي إلى المسئولين ولكن حلمي حمادة منعنـي بقوة 0

واضح انه لم يكن يؤمن بالدولة نفسها ! بلي0 (ص60)

وحدثني بعد ذلك عن اعتقاله الثاني .. كنت في زيارة لحلمي حمادة في منزله، غادرته عند منتصف الليل ، ألقي القبض على فور خروجي من البيت ...

وسألوا .. متي انضممت إلى الشيوعيين ؟

وتحت تهديدهم لزينب دياب إذا لم اعترف بأنني شيوعي قلت له .. لا أتذكر تاريخا معينا ولكنني اعترف بأنني شيوعي0 (ص63)

وسجلت اعترافي على ورقة 000 ويوما جاء الحارس وقال :- لعلك اشتقت إلى رؤيـة صديقك حلمي حمادة ! وأزاح غطاء عن عين سحرية وأمره أن ينظر 0 نظرت فرأيت مشهدا غريبا تعذر على احتواؤه لأول وهله كمن يري صورة سرياليه ، ثم تبين لي أن حلمي حمادة معلق من قدميه وهو صامت ساكن ، مغمي عليه أو ميتا فتراجعت فزعا أترنح0 (ص 64)

اقتلاع الفساد :

وقد شاب أيماننا الثوري امتعاض راسخ أصبحنا أكثر استعداداً للإصغاء للنقد ، أنطفـأ الحماس ، تضاءلت الشعلة ، أجل إن الإيمان الأساسي لم يقتلع ، ولكننا قلنا أن الأسلوب يجب أن يتغير وأن الفساد يجب أن يستأصل وأن أعوان الساديين يجب أن يذهبوا ، الثورة المجيـدة أصبحت محاصرة .. وذات مساء عادا إلى مناقشة الموضوع مع حلمي حمادة فـي مسـكنه وقال حلمي حمادة : إنني أعجب كيف أنكما مازلتما تؤمنان بالثورة !

فقال له إسماعيل : إن وجود الأمعاء بالجسم البشري لا يقلل من جلال العقل0

فقال حلمي ساخرا : إننا نلجأ عند العجز إلى التشبيه والاستعارة .. ثم قال لهما .. علينـا أن نعمل .. وأطلعهما على منشور سري سيقوم بتوزيعه على بعض الرفاق ..

أمريكا عدو لدود :

ولم يداخلنا شك في قوتنا ولكن .. أمريكا ، هي العدو الحقيقي .. وكان " زين العابدين عبد اللـه " يتابعهم بين الاهتمام والاستهانة ثم أفصح رأيه قائلا : الحل تملكـه واحـده هـي أمريكا ! .. (ص43) وبقي الشبان وحدهم لا يسلمون أنفسهم للماضي ولا يأملون خيراً فـي أمريكا ، ورويداً رويداً ، وفي أعقاب إفاقتهم من الصدمة ، راحوا يتكلمون عن معركة بعيـدة المدي ، وصراع على مستوي العالم بين قوي التقدم والإمبريالية ، وعن تغييـرات أساسـية جوهرية في الداخل .. وهكذا .. وهكذا .. وهكذا0 (ص44).

♦

ملاحظات ختامية

بعد ذلك العرض الذي تناولنا فيه أربع أعمال لنجيب محفوظ ، القاهرة الجديدة ، خـان الخليلي ، ميرامار ، الكرنك .. وكان الهدف هو تكوين صورة تقريبية عن ملامـح المفكـر

الاشتراكي عند نجيب محفوظ .. وهل هذه الصورة سلبية أم إيجابية ؟ ثم ماذا يعني الأمر في كلا الحالين ؟

في القاهرة الجديدة وجدنا (على طه) .. مفكراً اشتراكياً ، وهو يكتفي بالنقد والتحليل دون أدني فعل ودون أي تأثير ، أنه أسير فكرة وذاته حتى انه لم يستطع الحفاظ علـى فتاتـه التي أحبها .. أنه يريد أن يأخذ ويستمتع بكل شئ ولكن أن يفعل شئ له قيمة فهذا ما لم نره ، وكل ما يفعله .. أن ينتظر !! ثم وجدناه يقول أني أتهيأ لكتابة موضوع عن توزيع الثروة في مصر ..

إن صورة على طه في القاهرة الجديدة صورة سلبية وهي لا تدعو أحداً أن يتمثله أو أن يسير على خطاه .. ويقول عن نفسه غير فقير واشتراكي .. ملحـد وشـريف .. عاشـق عذري 00وهنا نقول ما الذي أضافه إلى الواقع وما الذي غيره؟!

وإذا انتقلنا إلى أحمد راشد في خان الخليلي سنجد أيضا صورة سلبية أكثر .. فنحن لا نجده إلا في المقهي ولا يتجاذب الحديث إلا مع أحمد عاكف .. ثـم يحتـوي الكثيـر مـن التناقضات فهو ناقد لكل ما يحيط به ولكن في نفس الوقت لا يريد لأفكاره أن تخرج وتؤثر في المحيطين به ، وجدناه يقول لأحمد عاكف لا يجوز أن نشرك ثالثا من جماعتنا في هذا الحديث !!

وهنا نري أن دائرة التأثير لأحمد راشد محدودة رغم أنه محامي ويجلس في المقهي .. تأثيره في تلميذته وأخوها .. ثم أحمد عاكف .. في حين أن المفكر الاشتراكي الحقيقي لابـد أن يؤثر في المحيط الذي يعيش فيه ولابد أن يكون بمثابة الضوء الهادي وشـعلة الاسـتنارة للآخرين ..

ثم نجد أن كلا من على طه وأحمد راشد يرفضا الدين وهـذا أمـر لا ميـزة فيـه .. والإعلان عن هذه الفكرة تجعل الجميع ينْفَض من حوله .. وهذه نقطه سلبية أخري .. ونحن لا نجد غضاضه أبداً في أن يفكر الإنسان بشكل اشتراكي وبمنهج اشتراكي .. مـع التمسـك بالاعتقاد الديني ، ثم وجدنا الصورة السلبية تزداد عندما يعرضه لنا نجيب محفـوظ بصـورة

مشوهة ، حيث يكتشف أحمد عاكف أن أحمد راشد له عين زجاجية يخفيها بالنظارة السـوداء ..

ثم نجد نجيب يعرض صورة أخري أكثر تشويها ، انها صـورة المفكـر الاشـتراكي المرتد00 المتذبذب .. " منصور باهي " في ميرامار .. شخصية ضعيفة ، غير قادر علـى اتخاذ موقف حاسم تجاه أي أمر ، ثم تجده يريد أن يكتب بحثاً عن تاريخ الخيانة في مصـر ، انها الخيانة الذاتية .. انه الشخصية الاحتيالية بمجرد أن استاذه دخل السجن وجـدناه يـذهب لزوجته والتي يحبها فهو يريد أن يستحوذ عليها انها سلسلة من الخيانات المرفوضة وفق أبسط أنواع المنطق .. صورة مزرية وسخيفة للمفكر الاشتراكي في ميرامار ..

ثم وجدنا الشخصية الثورية الفاعلة النشطة المؤمنه بفكرها ومبادئها .. حلمي حمادة في الكرنك .. هذا الشخص الواعي المثقف الشريف الذكي ، إنه فاعل وايجابي ، ولكن ما يلبـث أن يدخل السجن ويتلقي أصناف العذابات لينتهي الأمر في خاتمة المطاف بالموت ، قتل نجيب محفوظ حلمي حمادة رغم كل الايجابيات التي كان يتمتع بها ، قتل حلمي حمادة وقتل الـوطن أيضا !! كان ذا فاعليه وأثر في أرض الواقع لكن من المؤسف ما يلبث أن يرحل بالموت !!

فهل كان نجيب محفوظ غير مؤمن بـالفكر الاشـتراكي ؟ أم أن لـه تصـور خـاص للاشتراكية يؤمن بها هو في عقله ولا يجدها متحققه في أرض الواقع ؟

ويجيب نجيب محفوظ قائلا : لكي أكون واضحا أكثر .. اعترف بأنني أؤمن بتحريـر الإنسان من :

1. الطبقية وما يتبعها من امتيازات كالميراث وغيره0
2. الاستغلال بكافة أنواعه0
3. أن يتحدد موقع الشخص بمؤهلاته الطبيعية والمكتسبه 0
4. أن يكون أجره على قدر حاجته0
5. أن يتمتع الفرد بحرية الفكر والعقيدة في حماية قانون يخضع له الحاكم والمحكوم 0
6. تحقيق الديمقراطيه بأشمل معانيها0

7. التقليل من سلطة الحكومة المركزية بحيث تقتصر على الأمن والدفاع0

هذه صورة المجتمع المنشود في نظر نجيب محفوظ انه مجتمع يهدف إلى تحقيق حرية الفرد وسعادته ، والاعتماد في كل شئ على العلم وربما التوجه في النهاية لمعرفـة الحقيقـة العليا أو المشاركة في خلقها[12]0

ورغم جمال صورة المجتمع الذي ينشده نجيب محفوظ ، ورغم اقترابه مـن المجتمـع الاشتراكي إلا أن نجيب محفوظ لم يعطنا نموذجا للبطل الذي يمكن أن يحتذي اذ أن من مهـام الفن أن يخلق النموذج الذي يحفز القارئ على خلق المجتمع المثالي 0 ان مـا فعلـه نجيـب محفوظ هو مجرد رصد للواقع ، وحتي في هذه النقطة فقد غلب عليه رصد النماذج الشائهه ، دون النماذج الإيجابية ، فليس كل الاشتراكيين هم أحمد راشد ، ولا على طـه ولا منصـور باهي ، ولا حتى حلمي حماده صحيح أن الاشتراكيين كجماعة شأنها في ذلك شأن أي جماعة، مهما علا شأنها ، لا تخلو من نماذج شائهة ، لكن الاشتراكيين في أغلبهم مفكـرون علميـون وسياسيون فاعلون كانوا وما زالوا متمسكين بمبادئهم ، وبمناضلين من أجل تحقيقها0

♦

الهوامش

1 ـ د0 عبد العظيم رمضان : الفكر الثوري في مصر قبل ثورة 23 يوليو، مكتبة الأسـرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 2004 ، ص 67 :92.

2 ـ موسوعة الهلال الاشتراكية ، دار الهلال 1970، ص 36.

3 ـ د0 عبد المحسن طه بدر : نجيب محفوظ الرؤية والأداه ، دار الثقافة ، القـاهرة 1978 ، ص 347 ، 348.

4 ـ د0 رجاء عيد : دراسات في أدب نجيب محفوظ : دار المعارف ، الإسكندرية ، سنة، ص 125 ، 126.

5 ـ نفس المرجع : ص 127.

6 ـ د0رفعت السعيد : تاريخ الشيوعية المصرية ، 1957-1965، شركة الأمـل للطباعـة والنشر،القاهرة، ص 105 – 110.

7 ـ إبراهيم فتحي : العالم الروائي عند نجيب محفوظ : الهيئة المصـرية العامـة للكتـاب ، القاهرة 1988 ، ص 145

8 ـ نفس المرجع : ص 147.

9 ـ د0 رفعت السعيد : المرجع السابق :ص 192.

10 ـ مجاهد عبد المنعم : ديوان وثالثها العشق، الهيئة المصرية العامـة للكتـاب ، القـاهرة أكتوبر 1996، ص 7.

11 ـ د0 صلاح قنصوة : الدين والفكر والسياسة ، دار القلم ، القاهرة سنة 2003 ، ص 13.

12 ـ مجلة الهلال : عدد خاص نجيب محفوظ ، تصدر عن مؤسسة أخبار اليـوم، القـاهرة فبراير 1970، ص41.

ـ روايات نجيب محفوظ :

القاهرة الجديدة ، سنة 1945.

خان الخليلي ، سنة 1946.

ميرامار ، سنة 1967.

الكرنك ، سنة 1974.

فهرست

الموضوع	الصفحة
(مقدمة) الرواية العربية والاتجاه اليساري	5
صورة الاشتراكي في أدب نجيب محفوظ	13
أولا : أحمد راشد في خان الخليلي	18
ثانيا : على طه في القاهرة الجديدة	35
ثالثا : منصور باهي في ميرامار	39
رابعا : حلمي حمادة في الكرنـ ـك	45
ملاحظات ختامية	52

***